تنوع أوصاف « البصر » في الذكر الحكيم دراسة بلاغية

الدكتور

سلامه دردير محمد علي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بجرجا

العدد العشرون

للعام ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م

الجزء الخامس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٦م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا ونبينا ، وحبيبنا محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن نعم الله – سبحانه وتعالى – على عباده كثيرة غامرة (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) / إبراهيم ومن نعمه الجليلة على الإنسان نعمة البصر التي نوه الله بها في كتابه العظيم ، وامتن بها على عباده في كثير من آياته كقوله سبحانه وتعالى : (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)) / النحل وفي الخلق والإنشاء والإيجاد يقول سبحانه : (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) / السجدة وفي سور وآيات كثيرة يتعدد الخطاب ويتنوع الأسلوب في بيان تلك النعمة ، فبوجودها وسلامتها يكون الإنسان مدركا عاقلا ، مميزا بين الخير والشر والحق والباطل ، مأمورا بالبحث والنظر في الكون – علويه وسفليه – بتأمل وتدبر : (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) . / يونس (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) . / العنكبوت (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) . / الأنعام فمن وراء الإبصار الظاهر إبصار آخر يبصر به الموقنون ، ومن عداهم لا يبصرون ، قد عطلوا ما وهبهم الله من أدوات الفهم والتدبر ، فنعى عليهم ذلك في قوله تعالى: (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا

يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) . / الأعراف وقال تعالى : (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (٢٦) / الأحقاف وفي أخبار القرآن الكريم عن تفاصيل حاسة البصر وبيان وظائفها الحسية والمعنوية إيجاز وإعجاز كلما نقب الباحث ودقق الدرس ؛وجد الأسرار والحكم المؤكدة والشاهدة على أن هذا القرآن الكريم من لدن حكيم حميد . ولا شك في أن التعبير البياني للقرآن الكريم عن حاسة البصر ،وتنوع الأوصاف الواردة معها يشتمل على كثير من الأسرار البلاغية ؛ مما يستدعي بل يستوجب الوقوف بتأن وتمعن أمام النصوص والتعبيرات القرآنية من أجل إبراز الأغراض البلاغية الكامنة في ثنايا تلك النصوص والتعبيرات القرآنية ،وبيان الأسرار التي دل عليها الأسلوب القرآني في موضعه .

ومن أهم أهداف التحليل البلاغي في هذا الشأن الوقوف على خصوصية تنويع الأوصاف المختلفة الواردة في سياق الحديث عن البصر في الذكر الحكيم ، ثم تعليلها وربطها بالغاية والسياق .

وقد قمت – قدر استطاعتي – بعمل دراسة تطبيقية على الآيات المشتملة على لفظة (البصر) ، واجتهدت في بيان بعض الظواهر البلاغية الكامنة في تنويع الألفاظ المصاحبة لها ؛ إذ إن التعبير القرآني أعظم وأجل من أن يحيط بكل أغراضه ومراميه مخلوق .

ويتأنق أسلوب القرآن في اختيار الألفاظ ، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها ، يستخدم كلا حيث يؤدي معناه في دقة فائقة ، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلق له ذلك اللفظ بعينه ، وأن لفظا آخر لا يستطيع توفية المعنى الذي وفى به ، فكل لفظ وضع ليؤدي نصيبه من المعنى أقوى أداء ، ولذلك لا تجد

في القرآن ترادفا ، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديدا ولما بين الكلمات من فروق ، ولما يبعثه بعضها في النفس من إيحاءات خاصة ؛ دعا القرآن ألا يستخدم لفظ مكان آخر، فقال:(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤). / الحجرات .

فهو لا يرى التهاون في استعمال اللفظ ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه ،ولما كانت (راعنا) لها معنى في العبرية مذموم ؛ نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا) البقرة ١٠٤ ، فالقرآن الكريم شديد الدقة فيما يختار من لفظ يؤدي به المعنى . (١)

ولقد كان حديث القرآن الكريم عن البصر يشمل ناحيتين رئيستين :

<u>الناحية الأولى</u> : الحديث عن البصر كصفة من صفات الله – عز وجل – ، حيث وردت هذه الصفة في عشرات الآيات القرآنية .

<u>والثانية</u> : الحديث عن البصر كنعمة من نعم الله على الإنسان ، وهي الناحية التي أطال فيها القرآن يطل منها عقل الإنسان على الوجود وبوساطتها يكسب علومه ومعارفه .

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن حديث القرآن عن بصر الإنسان لم يقصد به في غالب الآيات الناحية التشريحية بل يقصد به الناحية الإدراكية . ومما هو جدير بالتنبيه عليه أن الدراسة قد ركزت على التناول البلاغي للآيات القرآنية التي ذكر فيها المصدر أو القوة المدركة بلفظ (البصر) دون مشتقاته ، ودون الآيات المشتملة على عضو الإحساس (العين) .

---

(١) من بلاغة القرآن – د/ أحمد بدوي – دار نهضة مصر – ٢٠٠٥ م.

وأن المراد بالأوصاف : الألفاظ المقترنة بلفظ (البصر) والتي تمثل أوصافا معنوية صاحبته في التعبير القرآني .

وترتكز الدراسة على المناهج التالية :

١- المنهج الاستقرائي ،وذلك من خلال آيات القرآن الكريم المتعلقة بالبصر ما يتعلق منها بالإنسان.

٢- المنهج التحليلي ، وذلك من خلال تحليل الآيات تحليلا بلاغيا ،مستعينا بكتب البلاغة القرآنية والتفسير والمصنفات المختلفة .

وقد قمت بعزو النقولات والاقتباسات إلى مصادرها الأصلية ، ونسبة الأقوال إلى قائليها ، كما قمت بنسبة الآيات القرآنية إلى سورها ، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة ملتزما بالمنهجية المعمول بها في البحوث العلمية .

وبعد : فما قدمته لا يعدو كونه جهدا بشريا يعتريه الخطأ والنقص ، فما أحسنت فيه فمن الله وأسأله – سبحانه وتعالى – أن يغفر لي زلاتي ، إنه غفور رحيم .

المؤلف

سلامه دردير محمد علي

توطئة :

وردت في القرآن الكريم كلمة البصر ومشتقاتها وتصاريفها مائة وثمان وأربعين مرة فقط ، وحيثما وردت كلمة البصر في القرآن الكريم عنت رؤية الضوء والأجسام والصور بالعينين في ثمان وثمانين حالة فقط ، إذ أنها دلت في باقي المرات على التبصر العقلي والفكري بظواهر الكون والحياة أو بما يتلقاه المرء ويسمعه من آيات وأقوال . (١)

الكريم عن البصر الذي هو أعم وأدق في الاستعمال القرآني كحاسة من حواس الإنسان ؛ لما ينطوي لفظ البصر على كثير من الدلالات والأوجه المختلفة من المعاني :

قال الخليل : " البصر : العين ، مذكر ، والبصر : نفاذ القلب " . (٢)

وقيل:" البصر : حاسة الرؤية والجمع أبصار . والبصر في الأصل بمعنى الإدراك: إدراك العين وإحساسها ثم تجوز به عن القوة المودعة في ملتقى العصبين المجوفتين الواصلتين من الدماغ إلى الحدقتين ، ثم تتفرقان فيتأديان إلى العين تدرك بها الأضواء والألوان ، والأشكال بتفصيل معروف في محله وعن العين التي هي محله، وشاع هذا حتى صار حقيقة في العرف " (٣)

وقال ابن فارس : " (بصر) الباء والصاد والراء أصلان ، أحدها العلم بالشيء ، يقال : هو بصير به ، ومن هذه البصيرة . والأصل الآخر : فبصر الشيء غلظه ، ومنه البصر".(٤)

---

(١) ينظر : الإعجاز في آيات السمع والبصر في القرآن د/ صادق الهلالي، ود/ حسين اللبيدي، ط ثالثة / ٢٠٠٦م (بحث منشور ضمن سلسلة (إعجاز) . من ص ٣١ : ص٤٦ .

(٢) معجم العين : ص٧٤ – الخليل بن أحمد الفراهيدي – دار إحياء التراث العربي (بدون).

(٣) التعريفات : ص٣٢ علي بن محمد الجرجاني – دار الشؤون الثقافية ببغداد .(بدون)

(٤) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس : ١/ ٢٥٣، ٢٥٤ تحقيق عبد السلام هارون دار الفكر / ١٩٧٩م

ومن أسماء الله تعالى (البصير) هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها بغير جارحة ، والبصر عبارة في حقه عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات . (١)

والذي ينعم النظر في النظم القرآني يلاحظ التناسق الكامل والتآلف التام بين العبارة القرآنية والمعنى الذي يراد بيانه وتوضيحه ؛ فالألفاظ في النظم يلائم بعضها بعضا وهي كلها متوجهة إلى الغرض المنشود بحيث إذا كان المعنى غريبا كانت ألفاظه غريبة وإذا كان المعنى معروفا مستحدثا كانت الألفاظ تناسبها . يقول بديع الزمان النورسي:" اعلم أن الكلام إنما يكون ذا قوة وقدرة إذا كان أجزاؤه مصداقا لما قيل:

عباراتنا شتى وحسنك واحد ∴ وكل إلى ذاك الجمال يشير

بأن تتجاوب قيودات الكلام ونظمه وهيئته ،ويأخذ كل بيد الآخر ويظاهره ،ويمد كل بقدره الغرض الكلي مع ثمراته الخصوصية ، كأن الغرض المشترك حوض يتشرب من جوانبه الرطبة ،فيتولد من هذه المجاوبة المعاونة ، ومنها الانتظام ، ومنه التناسب ، ومنه الحسن والجمال الذاتي " . (٢)

ولقد بنى الإمام عبد القاهر – رحمه الله – نظرية النظم وتحقيقها للمعاني والدلالات على موقع الألفاظ بعضها من بعض ، واستعمال بعضها مع بعض ، والمقصود بالموقعية : أشكال المصاحبة والتقديم والتأخير على ضوئها ، والمقصود بالاستعمال : ضوابط التصاحب من الاختيار الصحيح للمفردات بعضها

---

(١) حكاه ابن الأثير في اللسان : ١/ ٤١٧

(٢) ينظر : إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز – بديع الزمان سعيد النورسي – ص١٢١ ، ١٢٢ – تحقيق : إحسان الصالحي – الناشر شركة سوزلر للنشر – الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م.؛ و: مباحث في إعجاز القرآن– د/ مصطفى مسلم : ص١٤١ – ١٤٣. دار المسلم للنشر– ط ثانية / ١٤١٦ ه

مع بعض ، المبني على التوافق الدلالي والتناسب بين الحقول الدلالية ؛ فالكلمة عند الإمام لا تؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضمها إلى كلمة وبنائها عليها ، وربط تحقيق معنى الألفاظ المرتبطة بعضها ببعض بوضعها في الوضع الذي يقتضيه علم النحو من قوانين وأصول ومناهج وعد الإخلال بشيء منها . (١)

ويمكن حصر ما صاحب لفظ (بصر) في القرآن الكريم من الألفاظ فيما يأتي (٢) :

- " لمح " بفتح اللام وسكون الميم : (النحل / ٧٧ ، القمر / ٥٠) .
- " السمع والفؤاد " : (الإسراء / ٣٦) .
- " زاغ " : (الأحزاب / ١٠ ، ص / ٦٣ ، النجم / ١٧) .
- " طغى " : (النجم / ١٧) .
- " ارجع " : (الملك / ٤) .
- " ينقلب " : (الملك / ٤) .
- " برق " : (القيامة / ٧) .
- " حديد " : (ق / ٢٢) .

---

(١) ينظر : الدلائل : ٤٤ ، ٦٩ ، ٨١ . تح / شاكر- مكتبة الخانجي ١٩٨٩ م ؛ والمصاحبة اللفظية في القرآن الكريم ودورها الرائد في توجيه المعنى والتفسير – د/ أشرف محمد السعدي : ص ١٠٢ – مطبعة دار الكتب والوثائق المصرية – ٢٠١٤ م .

(٢) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ١٢٢ ، ١٢٣ (بصر) – محمد فؤاد بد الباقي – مطبعة دار الكتب المصرية – ١٣٦٤ هـ ؛ والمصاحبة اللفظية في القرآن الكريم ودورها الرائد في توجيه المعنى والتفسير – د/ أشرف محمد السعدي : ص ١٤٥ .

-" غشاوة " : (البقرة / ٧ ، الجاثية / ٢٣) .

-" أولي " بضم الهمزة وكسر اللام : (آل عمران / ١٣) .

-" تدرك ، يدرك " : (الأنعام / ١٠٣) .

-" تشخص ، شاخصة " : (إبراهيم / ٤٢ ، الأنبياء / ٩٧) .

-" تعمى ، أعمى " : (الحج / ٤٦ ، محمد / ٢٣) .

-" أنشأ " : (المؤمنون / ٧٨) .

-" تتقلب " : (النور / ٣٧) .

-" شهد " : (فصلت / ٢٠ ، ٢٢) .

-" سكر " بضم الميم وكسر الكاف : (الحجر / ١٥) .

- " خشع ": (القمر /٧ ، القلم / ٤٣ ، المعارج / ٤٤ ، النازعات / ٩) .

- " يخطف " : (البقرة / ٢٠) .

- " صرف " : (الأعراف / ٤٧) .

- " طبع " : (النحل / ١٠٨) .

- " يغض : (النور / ٣٠ ، ٣١) .

- " يزلق " : (القلم / ٥١) .

أولا : **بلاغة وصف (البصر) بالخشوع** : -

وُصِفَ البصر بالخشوع في الذكر الحكيم في أربعة مواضع ، لم يرد لفظ البصر في جميعها مفردا ، وإنما اطرد هذا الوصف حال جمعه على (أبصار) ، وقد جاء الوصف المذكور في الموضع الأول مجموعا على زنة (فُعَّل) بضم الفاء وتشديد العين المفتوحة ، مقدما على لفظ (الأبصار) في آية القمر / ٧ .

بينما جاء في المواضع الثلاثة مفردا على زنة اسم الفاعل (خاشعة) ، المتقدم على الأبصار تارة في موضعين : (القلم / ٤٣ ، والمعارج / ٤٤) ، والمتأخر عنه تارة أخرى وذلك في موضع واحد في سورة (النازعات / ٩) .

= ففي سياق وصف أحوال الناس يوم القيامة جاء قوله تعالى : (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧)) / القمر .

فقد وصفت الآيات أحوال الناس في ذلك اليوم ، فوصفت أبصارهم بالخشوع؛ لأن آثار الشيء يظهر أولا على العين ، وخشوع البصر خضوعه واستسلامه ، وهو كناية عن الذل والشدة . [١] وقوله : (خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ) ، حال من فاعل (يَخْرُجُونَ) والتقديم لأن العامل متصرف أي يخرجون (مِنَ الْأَجْدَاثِ) أذلة أبصارهم من شدة الهول . [٢]

وقرأ قتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والجمهور (خشعا) جمع تكسير ، وابن عباس وابن جبير ومجاهد والجحدري وأبو عمرو وحمزة والكسائي (خاشعا) بالإفراد ، وقرأ أبي وابن مسعود:(خاشعة) وجمع التكسير أكثر في كلام العرب ، وقال الفراء وأبو عبيدة :كله جائز. [٣] يقول أبو حيان:" ومن قرأ (خشعا) جمع تكسير فلأن الجمع موافق لما بعده وهو(أبصارهم) وموافق للضمير الذي هو صاحب الحال في (يخرجون) وهو نظير قولهم : مررت برجال كرام آباؤهم ... وكذا قال الفراء حين ذكر الإفراد مذكرا ومؤنثا ،وجمع التكسير. قال :

---

(١) ينظر : (من أسرار النظم في سورة القمر) – فايزة سالم صالح أحمد – ص/١١ ، ١٢ – سنة ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م (بحث منشور على موقع جامعة أم القرى) .

(٢) ينظر : أبو السعود ١٦٨/٨ .

(٣) ينظر : البحر المحيط ١٧٣/٨، وينظر : (لباب التأويل في معاني التنزيل) / علي بن محمد البغدادي (المعروف بالخازن) : ٤ / ١٩٥ . طبعه حسن حلمي الكتبي ، ومحمد حسن جمالي الحلبي سنة ١٣١٧ه

لأن الصفة متى تقدمت على الجماعة جاز فيها جميع ذلك ، والجمع موافق للفظها، فكان أشبه . انتهى ....وخشوع الأبصار كناية عن الذلة ، وهي في العيون أظهر منها في سائر الجوارح ، وكذلك أفعال النفس من ذلة وعزة ، وحياء وصلف وخوف ، وغير ذلك "[١] . وقد جمعت (خشعا) في هذه الآية دون غيرها – على قراءة من قرأ بها – ؛ وذلك لبيان توالي الهول وكثرته ، وأنه ليس خشوعا واحدا بل خشوعا بعد خشوع ، وهول فوق هول. [٢]

" ويطرد فعل (بضم الفاء وتشديد العين) جمعا لوصف على (فاعل وفاعلة) صحيح اللام : كضرب في ضارب وضاربة . ويدل هذا الجمع على الحركة الظاهرة ، كما أن فيه الدلالة على تكثير القيام بالفعل .غير أن أبرز دلالة فيه هي دلالته على الحركة الظاهرة ويختلف عن فعال في أن الحركة في هذا البناء أوضح وأكثر ؛ وذلك لقصره عن فعال فإنما قصرت المدة للحركة فيه ، فإن الحركة تحتاج إلى السرعة التي تنافي المد ، ولذلك كانت مصادر الأفعال المتعدية على وزن (فعل) (بضم الفاء وتشديد العين) غالبا للدلالة على الحركة فنقول : صده صدا وصد عنه صدودا ، ووقفه ووقف وقوفا فحذفت المدة لقوة حركة التعدي وهكذا في فعل " . [٣] وفي تقديم الحال على عامله في قوله:(مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ(٨) القمر، وذكر الزمخشري أن خشوع الأبصار كناية عن الذلة والانخذال لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما ..) . [٤]

---

(١) البحر المحيط : ٨ / ١٧٤

(٢) ينظر : (من أسرار النظم في سورة القمر) – فايزة سالم صالح أحمد – ص/١١ ، ١٢ (مرجع سابق)

(٣) (معاني الأبنية) – د / فاضل السامرائي : ص: ١٣٣، ١٣٤ دار عمار للنشر / ط ثانية ٢٠٠٧م

(٤) ينظر : الكشاف :٣٦/٤ دار الفكر للطباعة (د / ت) ، وينظر : البحر المحيط : ٨/ ١٧٦ ١٧٦ أبو حيان الأندلسي – مكتبة ومطابع النصر الحديثة الرياض(د/ت) .

ولعل القيمة التعبيرية لتقدم الحال في الآيتين تتمخض في إرادة معنى بليغ هو الذلة والانكسار للمكذبين وشعورهم بهول الموقف العصيب ؛ لأن لفظة (الخشوع) تعنى : الخضوع والاستكانة عن ضراعة أو عن رهبة وإجلال ، وهو في الصوت والبصر والسكون والغض ... ، وقد جاء الخشوع في القرآن صادرا عن رهبة وإجلال حين يسند إلى المؤمنين[١] ، ولو كان الحال متأخرا لعدمنا ذلك التصوير الفني لهيأة الأبصار وملائمة كنايته عن الذلة التي غالبا ما تظهر في العيون أكثر منها في بقية الجوارح . [٢]

يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور : " (خشعا أبصارهم) أي : ذليلة ينظرون من طرف خفي لا تثبت أحداقهم في وجوه الناس ، وهي نظرة الخائف المفتضح ، وهو كناية ؛ لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما " . [٣]

وفي سياق بيان حال من كذب بما جاء به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم القيامة جاء قوله تعالى : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)) . / القلم .

فقد خص الأبصار بالخشوع وإن كانت الجوارح كلها خاشعة ؛ لأنه أبين فيه منه في كل جارحة ؛وذلك لظهور أثره فيها . [٤] وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم من السجود ، ووجههم أشد بياضا من الثلج ، وقد علاها النور والبهاء، وتسود وجوه الكفار والمنافقين ، ويغشاهم ذل وخسران وندامة " . [٥]

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم ١٩٩/١ د/ عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف مصر /١٩٦٢م
(٢) ينظر : التقديم والتأخير في القرآن الكريم ص١٢٧ حميد أحمد عيسى العامري دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد ، ط أولى /١٩٩٦ م) .
(٣) التحرير والتنوير : ٢٧ / ١٧٧ الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ م
(٤) ينظر: البحر المحيط : ٣١٠/٨ ، وتفسير أبو السعود : ٩ / ١٨
(٥) – تفسير الخازن : ٣٠٢/٤

وخشوع الأبصار : هيئة النظر بالعين بذلة وخوف ، استعير لـه وصـف (خاشعة)؛ لأن الخاشع يكون مطاطئاً مختفياً . (١)

وفي سياق بيان ما يلحق بالكفار يوم البعث حال خروجهم من قبورهم جاء قول الحق – سبحانه وتعالى – :(يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَـأَنَّهُمْ إِلَـى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) . / المعارج

الضمير في (يخرجون) عائد إلى المشركين المخبر عنه بالأخبار السابقة ، وجميعهم قد دفنوا في قبور أو وضعوا في قليب بدر .والنصب بفـتح فسـكون: الصنم ، ويقال: نصب بضمتين ، ووجه تسـميته نصـبا أنـه ينصـب للعبـادة و (يوفضون) مضارع (أوفض) ، إذا أسرع وعدا فـي سـيره ، أي : كـأنهم ذاهبون إلى صنم ، شبه إسراعهم يوم القيامة إلى الحشر بإسراعهم في الدنيا إلى الأصنام لزيارتها ؛ لأن لهذا الإسراع اختصاصا بهم ، وفي هذا التشـبيه إدمـاج لتفظيع حالهم في عبادة الأصنام ، وإيماء إلى أن إسراعهم يوم القيامـة إسـراع دع، ودفع جزاء على إسراعهم للأصنام .

وقرأ الجمهور (نَصْب) بفتح النون وسكون الصاد . وقـرأه ابـن عـامر وحفص عن عاصم بضم النون والصـاد . (٢) (خاشـعة أبصـارهم) وصـفت أبصارهم بالخشوع مع أنه وصف الكل ؛ لغاية ظهور آثاره فيها (ترهقهم ذلـة) تغشاهم ذلة شديدة . (٣)

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٩ / ٩٩

(٢) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٩ / ١٨٤

(٣) ينظر : أبو السعود ٩/ ٣٥

وخشوع الأبصار استعارة للنظر إلى أسفل من الذل، كما قال تعالى (ينظرون من طرف خفي) وقال (خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) . وأصل الخشوع : ظهور الطاعة أو المخافة على الإنسان . (١)

وفي سياق التهويل من يوم البعث والإنذار بوقوعه والتحذير مما يجري فيه جاء قوله تعالى في سورة النازعات : (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ(٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)

فجُمْلَةُ (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ) إِلَى (خاشِعَةٌ) جَوَابُ الْقَسَمِ الوارد في مفتتح السورة ، وَصَرِيحُ الْكَلَامِ مَوْعِظَةٌ .

وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ لَازِمُهُ ، وَهُوَ وُقُوعُ الْبَعْثِ ؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي أَجْسَامٍ . وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ بقوله : (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ) هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ عُرِّفَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِمَّا سَبَقَ نُزُولُهُ مِثْلَ قَوْلِهِ : (إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ)(٢) فَكَانَ فِي هَذَا الْجَوَابِ تَهْوِيلٌ لِيَوْمِ الْبَعْثِ ، وَفِي طَيِّهِ تَحْقِيقُ وُقُوعِهِ ؛ فَحَصَلَ إِيجَازٌ فِي الْكَلَامِ جَامِعٌ بَيْنَ الْإِنْذَارِ بِوُقُوعِهِ وَالتَّحْذِيرِ مِمَّا يَجْرِي فِيهِ . ويَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ظَرْفٌ مُتَعَلِّقٌ ب (واجِفَةٌ) فَآلَ إِلَى أَنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ الْمُرَادَ تَحْقِيقُهُ هُوَ وُقُوعُ الْبَعْثِ بِأُسْلُوبٍ أَوْقَعَ فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ الْمُنْكِرِينَ مِنْ أُسْلُوبِ التَّصْرِيحِ بِجَوَابِ الْقَسَمِ ، إِذْ دَلَّ عَلَى الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ بَعْضُ أَحْوَالِهِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَهْوَالِهِ ؛ فَكَانَ فِي جَوَابِ الْقَسَمِ إِنْذَارٌ .

وَلَمْ تُقْرَنْ جُمْلَةُ الْجَوَابِ بِلَامِ جَوَابِ الْقَسَمِ لِبُعْدِ مَا بَيْنَ الْجَوَابِ وَبَيْنَ الْقَسَمِ بِطُولِ جُمْلَةِ الْقَسَمِ ، فَيَظْهَرُ لِي مِنَ اسْتِعْمَالِ الْبُلَغَاءِ أَنَّهُ إِذَا بَعُدَ مَا بَيْنَ الْقَسَمِ وَبَيْنَ الْجَوَابِ لَا يَأْتُونَ بِلَامِ الْقَسَمِ فِي الْجَوَابِ .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٩ / ١٨٤

(٢) الواقعة / ٤ .

وَقُدِّمَ الظَّرْفُ عَلَى مُتَعَلَّقِهِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الظَّرْفَ هُوَ الْأَهَمُّ فِي جَوَابِ الْقَسَمِ ؛ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ إِثْبَاتُ وُقُوعِهِ ، فَتَقْدِيمُ الظَّرْفِ لِلِاهْتِمَامِ بِهِ وَالْعِنَايَةِ بِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا أُكِّدَ الْكَلَامُ بِالْقَسَمِ شَمِلَ التَّأْكِيدُ مُتَعَلَّقَاتِ الْخَبَرِ الَّتِي مِنْهَا ذَلِكَ الظَّرْفُ ، وَالتَّأْكِيدُ اهْتِمَامٌ ، ثُمَّ أُكِدَّ ذَلِكَ الظَّرْفُ فِي الْأَثْنَاءِ بِقَوْلِهِ : (يَوْمَئِذٍ) الَّذِي هُوَ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ فَحَصَلَتْ عِنَايَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَذَا الْخَبَرِ. وَالرَّجْفُ : الِاضْطِرَابُ وَالِاهْتِزَازُ .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِسْنَادُ تَرْجُفُ إِلَى الرَّاجِفَةُ حَقِيقِيًّا ، فَالْمُرَادُ بِالرَّاجِفَةُ : الْأَرْضُ ؛ لِأَنَّهَا تَضْطَرِبُ وَتَهْتَزُّ بِالزَّلَازِلِ الَّتِي تَحْصُلُ عِنْدَ فَنَاءِ الْعَالَمِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْمَصِيرِ إِلَى الْعَالَمِ الْأُخْرَوِيِّ قَالَ تَعَالَى: (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ)[1] . وَتَأْنِيثُ الرَّاجِفَةُ لِأَنَّهَا الْأَرْضُ ،وَحِينَئِذٍ فَمَعْنَى :(تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) أَنَّ رَجْفَةً أُخْرَى تَتَبَعُ الرَّجْفَةَ السَّابِقَةَ ؛لِأَنَّ صِفَةَ (الرَّاجِفَةُ) تَقْتَضِي وُقُوعَ رَجْفَةٍ ، فَالرَّادِفَةُ رَجْفَةٌ ثَانِيَةٌ تَتْبَعُ الرَّجْفَةَ الْأُولَى.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِسْنَادُ (تَرْجُفُ) إِلَى (الرَّاجِفَةُ) مَجَازًا عَقْلِيًّا ، أَطْلَقَ (الرَّاجِفَةُ) عَلَى سَبَبِ الرَّجْفِ فَالْمُرَادُ ب(الرَّاجِفَةُ) : الصَّيْحَةُ وَالزَّلْزَلَةُ الَّتِي تَرْجُفُ الْأَرْضُ بِسَبَبِهَا ، جُعِلَتْ هِيَ الرَّاجِفَةَ مُبَالَغَةً كَقَوْلِهِمْ : عِيشَةٌ رَاضِيَةٌ ، وَهَذَا هُوَ الْمُنَاسِبُ لِقَوْلِهِ : (تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) أَيْ : تَتْبَعُ تِلْكَ الرَّاجِفَةَ ، أَيْ : مُسَبِّبَةُ الرَّجْفِ رَادِفَةٌ ، أَيْ وَاقِعَةٌ بَعْدَهَا .

وَيَجُوزُ : أَنْ يَكُونَ الرَّجْفُ مُسْتَعَارًا لِشِدَّةِ الصَّوْتِ ، فَشُبِّهَ الصَّوْتُ الشَّدِيدُ بِالرَّجْفِ ، وَهُوَ التَّزَلْزُلُ .

وَتَأْنِيثُ الرَّاجِفَةُ عَلَى هَذَا ؛ لِتَأْوِيلِهَا بِالْوَاقِعَةِ أَوِ الْحَادِثَةِ .

---

(١) المزمل / ١٤ .

و(تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) : التَّالِيَةُ ، يُقَالُ: رَدِفَ بِمَعْنَى تَبِعَ ، وَالرَّدِيفُ : التَّابِعُ لِغَيْرِهِ ، قَالَ تَعَالَى :(أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ)[١] ، أَيْ : تَتْبَعُ الرَّجْفَةَ الْأُولَى ، ثَانِيَةٌ . فَالْمُرَادُ : رَادِفَةٌ مِنْ جِنْسِهَا ، وَهُمَا النَّفْخَتَانِ اللَّتَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ) [٢] .

وَجُمْلَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ حَالٌ مِنَ الرَّاجِفَةُ . وَتَنْكِيرُ (قُلُوبٌ) لِلتَّكْثِيرِ ، أَيْ : قُلُوبٌ كَثِيرَةٌ ؛ وَلِذَلِكَ وَقَعَ مُبْتَدَأً وَهُوَ نَكِرَةٌ لِإِرَادَةِ النَّوْعِيَّةِ .

وَالْمُرَادُ: قُلُوبُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَجْحَدُونَ الْبَعْثَ فَإِنَّهُمْ إِذَا قَامُوا فَعَلِمُوا أَنَّ مَا وَعَدَهُمُ الرَّسُولُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِهِ حَقٌّ تَوَقَّعُوا مَا كَانَ يُحَذِّرُهُمْ مِنْهُ مِنْ عِقَابِ إِنْكَارِ الْبَعْثِ وَالشِّرْكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ .

فَأَمَّا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ فِيهَا اطْمِئْنَانًا مُتَفَاوِتًا بِحَسَبِ تَفَاوُتِهِمْ فِي التَّقْوَى .

وَالْخَوْفُ يَوْمَئِذٍ وَإِنْ كَانَ لَا يَخْلُو مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا أَنَّ أَشَدَّهُ خَوْفُ الَّذِينَ يُوقِنُونَ بِسُوءِ الْمَصِيرِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

وَالْوَاجِفَةُ: الْمُضْطَرِبَةُ مِنَ الْخَوْفِ ، يُقَال: وجف كضرب ، وَجْفًا وَوَجِيفًا ، وَوُجُوفًا : إِذَا اضْطَرَبَ ، و (واجِفَةٌ) خَبَرُ ق وَجُمْلَةُ (أَبْصارُها خاشِعَةٌ) خَبَرٌ ثَانٍ عَنْ قُلُوبٌ ، وَقَدْ زَادَ الْمُرَادَ مِنَ الْوَجِيفِ بَيَانًا قَوْلُهُ أَبْصارُها خاشِعَةٌ ، أَيْ : أَبْصَارُ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ . [٣]

فإن قيل : إن حق الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع حتى قالوا : إن الصفات قبل العلم بها أخبار ، والأخبار بعد العلم بها

---

(١) الأنفال / ٩ .
(٢) الزمر / ٦٨ .
(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٣٠ / ٦٥ : ٦٧ .

صفات ، فحيث كان ثبوت الوجيف للقلوب وثبوت الخشوع لأبصار أصحابها سواء في المعرفة والجهالة كان جعل الأول عنوانا للموضوع مسلم الثبوت مفروغا عنه، وجعل الثاني مخبرا به مقصود الإفادة تحكما بحتا . على أن الوجيف الذي هو عبارة عن شدة اضطراب القلب وقلقه من الخوف وجعل والوجل أشد من خشوع البصر وأهول فجعل أهون الشرين عمدة وأشدهما فضلة مما لا عهد له في الكلام وأيضا فتخصيص الخشوع بقلوب موصوفة بصفة معينة غير مشعرة بالعموم والشمول ؛ تهوين للخطب في موقع التهويل .

فالوجه أن يقال : تنكير قلوب يقوم مقام الوصف المختص سواء حمل على التنويع كما قيل، وإن لم يذكر النوع المقابل فإن المعنى منسحب عليه أو على التكثير كما في شر أهر ذا ناب فإن التفخيم كما يكون بالكيفية يكون بالكمية أيضا كأنه قيل قلوب كثيرة يوم إذ يقع النفختان واجفة ، أي : شديد الاضطراب . (١)

وَالْخُشُوعُ حَقِيقَتُهُ : الْخُضُوعُ وَالتَّذَلُّلُ ، وَهُوَ هَيْئَةٌ لِلْإِنْسَانِ ، وَوَصْفُ الْأَبْصَارِ بِهِ مَجَازٌ فِي الِانْخِفَاضِ وَالنَّظَرِ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ مِنْ شِدَّةِ الْهَلَعِ وَالْخَوْفِ مِنْ فَظِيعِ مَا تُشَاهِدُهُ مِنْ سُوءِ الْمُعَامَلَةِ

وَإِضَافَةُ (أَبْصَارُ) إِلَى ضَمِيرِ الْقُلُوبِ لِأَدْنَى مُلَابَسَةٍ ؛ لِأَنَّ الْأَبْصَارَ لِأَصْحَابِ الْقُلُوبِ وَكِلَاهُمَا مِنْ جَوَارِحِ الْأَجْسَادِ مِثْلَ قَوْلِهِ : (إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها) (٢). (٣)

<u>سمات منهج القرآن الكريم في وصف (البصر) بالخشوع</u> : بالتأمل في المواضع التي ورد فيها لفظ (الخشوع) ومشتقاته المصاحب للبصر يمكن تقرير ما يأتي :

---

(١) ينظر : أبو السعود : ٩ / ٩٧ .

(٢) النازعات / ٤٦ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٣٠ / ٦٨ ؛ والبحر المحيط : ٨ / ٤١٢ ؛ وتفسير الخازن : ٤ / ٣٥٥ .

١- انتظام ورود الوصف في أساليب خبرية مثبتة ، وعلى الصورة الاسمية ، وإن تنوعت تلك الصورة ما بين اسم الفاعل وجمع التكسير .

٢- المعنى العام للوصف الوارد هو الذلة والانكسار .

٣- جاء الوصف ملازما لمقام الذم وسوء المصير للكفار ، مع إيقاعه على أبصارهم دائما ، فلم ينسحب على قلوبهم أو على أسماعهم .

٤- اطراد استعمال الوصف الوارد في الكناية، فخشوع الأبصار كناية عن المذلة والخذلان.

ثانيا : بلاغة وصف (البصر) بالشخوص :

يقال : شخص البصر ، أي : أحد ولم يستقر مكانه ، وهو مأخوذ من قولهم : شخص الرجل من بلده إذا خرج منه ولم يستقر فيه . والشخص: سواد الإنسان القائم المرئي من بعيد ، وهذا يعني عدم التثبت والتحقق من هذا الإنسان المرئي من بعيد .

والشخص : سواد الإنسان القائم المرئي من بعيد ، وقد شخص من بلده : نفذ ، وشخص سهمه ، وبصره ، وأشخصه صاحبه ، قال تعالى:(لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) إبراهيم٤٢ ، (فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا (٩٧) / الأنبياء، أي: أجفانهم لا تطرف [١] .

وبهذا يظهر الارتباط بين الأصل اللغوي للكلمة وبين ما استعملت فيه . وبالتأمل في سياق الآيات التي ورد فيها مصاحبة الشخوص للبصر نجد هذا متحققا .

---

(١) ينظر : المفردات للراغب : ص٤٤٧.

ففي سياق بيان تهويل خطب الكافرين وتفظيع حالهم ، وبيان أنهم متوجهون إلى العذاب مرصدون لأمر ما .. ومؤخرون ليوم هائل تشخص فيه أبصارهم جاء قوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) / إبراهيم فقد جاء التعبير بصفة شخوص البصر في الآية الكريمة في موقف يصور استيلاء الرعب على الكفار من هول ما يشاهدونه من العذاب ، وشخوص البصر يحدث حين يرى الشخص شيئا لا يتوقعه ، ولم يحسب حسابه ؛ فينظر مندهشا ، يجمد جفنه الأعلى فلا يستطيع أن يطرف . ففي الآية نجد حديث القرآن عن موقف الحساب وبيان سوء حال الكفار في ذلك اليوم الذي لم يحسبوا له حسابا ، ولم يستعدوا له ، وإنما أنكروا حدوثه من أصله ؛ فهم غافلون عنه ؛ لذا جاءت الآية لبيان تهويل الخطب وتفظيع الحال ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب مرصدون لأمر ما .. ومؤخرون ليوم هائل تشخص فيه أبصارهم ، أي : تبقى مفتوحة لا تتحرك من هول ما يرونه [١].

وقد وصف الله – تعالى – حال الظالمين في ذلك اليوم العظيم ، فذكر أن عيونهم لا تطرف من شدة الأهوال التي تراها في ذلك اليوم ، فإغماض العين قد يكون علامة للاطمئنان ، أما يوم القيامة فلا سبيل لذلك ، حيث تكون الأعين مفتوحة متسعة الأحداق من صنوف الأهوال التي تراها .

وهذا الوصف للأبصار يشمل أهل الموقف جميعا فيدخل في زمرتهم الظالمون ، وبناء عليه فإن (أل) في قوله (الأبصار) للعموم وليس للعهد ، وإن كان هذا هو الظاهر والمناسب لما بعده ؛ لأن اعتبارها للعموم أدخل في باب التهديد ، والله أعلم .

---

(١) ينظر : أبو السعود : ٥/٥ .

وشخوص البصر فيه دلالة على فرط الحيرة والدهشة ، والآية فيها تصريح بدوام شخوص أبصارهم حيث تبقى أعينهم دائما مفتوحة لا تطرف كالمحتضر؛ لما أصابها من الهول . فهؤلاء الظالمون لا يستطيعون تحريك جفونهم ، وهذا كناية عن بقاء العين مفتوحة على حالها لشدة هول ما يشاهدونه .

أو أن أبصارهم قد استغرقتها الأهوال التي تراها فهي فزعة هلعة ، قد سمرت أعينهم فيما ترى من عذاب ترى من عذاب ذلك الهول الأعظم فلا ترجع إليهم ، ولا تعود تحت سيطرتهم ، هذا هو المراد بعدم ارتداد الطرف .

ووحد الطرف ؛ لأنهم يكونون في هيئة العين قريبا من السواء ، فكل العيون تبدو شاخصة وعلى هيئة واحدة ؛ لذا كان من الملائم إيثار المفرد على الجمع .

وبنظرة أخرى في هذه الآية نلحظ أنه عبر عن دهشة وهلع الظالمين يوم القيامة من خلال تكاثف الأحوال التي تكشف عن هيئتهم يوم القيامة ، فقوله : (مهطعين مقنعي رءوسهم) ، حالان من المضاف المحذوف ، إذ التقدير: أصحاب الأبصار . أو تكون الأبصار دلت على أصحابها فجاءت الحال من المدلول عليه كما قال أبو البقاء . وجملة (لا يرتد إليهم طرفهم) في موضع الحال أيضا من الضمير في(مقنعي رءوسهم) ويجوز أن تكون مستأنفة . وقد جاءت هذه الأحوال الثلاثة كنايات عن الذل وشدة الهلع والوله . [١]

وجاء في قوله تعالى : (تشخص فيه الأبصار) تقديم الجار والمجرور على الفاعل في الموضع الأول ؛ لاعتبار أهمية المتقدم ، فالغرض بيان الوقت أو الزمن الذي تشخص فيه أبصارهم ؛ لذا تقدم الجار والمجرور (فيه) للدلالة على

---

(١) ينظر : تفسير أبي السعود: ٥/ ٥٤، ٥٥ ؛ وتفسير الشعراوي : ١٢/ ٧٥٩٤ – ٧٥٩٧ ؛ وتأملات في سورة إبراهيم تفسير بلاغي تطبيقي) د/ عادل الرويني : ٢٢٣ – ٢٢٦ . ط / جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم .

هذا المقصد . وفي التعبير بالشخوص هنا فيه دلالة على استيلاء الرعب على أصحابها ، فلا يتحولون عن المشهد المرعب ، وقد تناغم تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى : (تشخص فيه الأبصار) مع تقديم الجار والمجرور على الفاعل في قوله تعالى : (لا يرتد إليهم طرفهم) في الآية التي تليها ؛ وذلك للتأكيد على عدم سيطرتهم على عيونهم التي سمرت من هول ما تشاهده ، وعدم تحكمهم فيها ؛ حيث ملكتها تلك المرائي المفزعة ، ولم يعد لهم عليها من سلطان فيستطيعون تحويلها عما تراه أو إغماض جفونها [١].

وفي سياق الحديث عن اقتراب مجيء يوم القيامة ، والتأكيد على ما يلحق الكفار من شدة الأهوال يومئذ ، جاء قوله تعالى في سورة الأنبياء : (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) .

ففي هذه الآية الكريمة نجد الحديث عن اقتراب الوعد الحق أي : الصادق الذي لا يتخلف ، وهو يوم القيامة ، ومجيء القيامة يكون مفاجئة كما دل عليه التعبير ب(فإذا) الفجائية فساعة تقوم الساعة سوف تفاجئ الجميع ، ولا يدري أحد ماذا يفعل ؟ .

والمراد بقوله (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ) : ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء لا النفخة الأولى (فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) جواب الشرط وإذا للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية [٢] .

فإن قيل : الشرط هو مجموع فتح سد يأجوج ومأجوج واقتراب الموعود الحق ، وهذا المجموع إنما يحصل في آخر أيام الدنيا ، والجزاء وهو شخوص أبصار الذين كفروا وارتفاعها من شدة الأهوال بحيث لا تكاد تطرف إنما يحصل

(١) ينظر : تأملات في سورة إبراهيم تفسير بلاغي تطبيقي ، د/ عادل الرويني : ٢٢٦ .
(٢) ينظر : تفسير أبو السعود : ٨٥/٦ .

يوم القيامة والشرط والجزاء لابد أن يكونا مقترنين . فالجواب : أن التفاوت القليل يجري مجرى العدم [١].

وشخوص البصر يأتي حين يرى الإنسان شيئا لا يتوقعه ، ولم يحسب حسابه ، فينظر مندهشا يجمد جفنه الأعلى الذي يتحرك على العين ، فلا يستطيع حتى أن يرمش أو يطرف وإذا أراد إنسان منا أن يرى شخوص البصر فلينظر إلى شخص يفاجأ بشيء لم يكن في باله ، فنراه – بلا شعور وبغريزته التكوينية – شاخص البصر ، لا ينزل جفن . ثم يقولون : (يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا) . فلم يقتصر الموقف على شخوص البصر إنما تتحرك أيضا أدوات الإدراك فيقول اللسان : (يا ويلنا) وهذا نداء للويل أي : جاء وقتك فلم يعد أمامهم إلا أن يقولوا : يا عذاب هذا أوانك فاحضر [٢].

سمات منهج القرآن الكريم في وصف(البصر) بالشخوص :

١- انتظام ورود الوصف في أساليب خبرية مثبتة ، مع تنوع صوره ما بين الفعل المضارع (تشخص) واسم الفاعل (شاخصة) .

٢- المعنى العام للوصف الوارد هو الدلالة على فرط الحيرة والدهشة .

٣- جاء الوصف ملازما لمقام تصوير حال الكفار والظالمين يوم الحساب والعرض الأكبر على الله – سبحانه وتعالى – ، مع إيقاع الوصف على أبصارهم دائما ، فلم ينسحب على وجوههم أو على أبدانهم .

٤- اطراد استعمال الوصف الوارد في الكناية، فشخوص الأبصار كناية عن فرط الحيرة والدهشة

---

(١) ينظر : حاشية شيخ زاده : ٣٦٩/٣ .

(٢) ينظر : تفسير الشعراوي : ١٦ / ٩٦٥٣ .

ثالثا : بلاغة وصف(البصر) بالزيغ :

" الزيغ " في أصل معناه : الاضطراب وعدم التحقق من الرؤية . وهذا إنما يحدث من شدة الفزع والاضطراب ؛ لرؤية ما لم يكن في الحسبان . والزيغ : الميل عن الاستقامة ، والتزايغ : التمايل ، ورجل زائغ ، وقوم زاغة ، وزائغون ، وزاغت الشمس ، وزاغ البصر .(١)

= وهذا واضح في آية الأحزاب : (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)) .

= كما هو واضح في آية النجم (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧)) ، فنفى الزيغ متناغم مع السياق والمقام المتحدث عن الأمور العجيبة المذهلة التي لا تحصى ، تلك العجائب التي أمر برؤيتها ، ومكن منها ، وما جاوزها . (إذ يغشى السدرة ما يغشى) ، (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) .

= أما عن آية (ص) ، فالهول قد استولى على الطاغين من الكفار وهم في جهنم ، وبصرهم فزع من شدة ما رأوه من أهوال ، فأخذوا يؤنبون أنفسهم ويوبخون على ما فعلوه في فقراء المسلمين ، فأخذوا يستفهمون عنهم ، ويسألون عن عدم رؤيتهم لهم في النار .

= أما ما جاء في آية الأحزاب ، فهذا وصف لما جرى في غزوة الأحزاب التي جمعت فلول أعداء رسول الله ، فقد سبق ان حاربهم متفرقين ، والآن يجتمعون لحربه– صلى الله عليه وسلم – ، فجاءت قريش ومن تبعها من غطفان وأسد وبني فزارة وغيرهم ، وجاء اليهود من بني النضير وبني قريظة ، وعجيب أن يجتمع كل هؤلاء لحرب الإسلام على ما كان بينهم من العداوة والخلاف . والمعنى : (إذ جاءوكم ..) الأحزاب أي : اذكر يا محمد وتخيل وتصور إذ جاءكم

---

(١) ينظر : المفردات : ص٣٨٧ .

الأحزاب وتجمعوا لحربك (من فوقكم ..) الأحزاب أي : من ناحية الشرق ، وهم : غطفان ، وبنو قريظة ، وبنو النضير (ومن أسفل منكم ..) الأحزاب أي : من ناحية الغرب وهم قريش ، ومن تبعهم من الفزاريين والأسديين وغيرهم (وإذ زاغت الأبصار ..) الأحزاب أي : اذكر إذ زاغت الأبصار ، ومعنى زاغ البصر أي: مال . ف (زاغت الأبصار) يعني : مالت عن سمتها وسنمها ، وقد خلق الله العين على هيئة خاصة ، بحيث تتحرك إلى أعلى ، وإلى أسفل ، وإلى اليمين وإلى الشمال ، ولكل اتجاه منها اسم في اللغة ، فيقولون : رأى أي : بجمع عينه ، ولمح بمؤخر موقه ، ورمق أي : من ناحية أنفه .. الخ .

فسمت العين وسنمها أن تتحرك في هذه الاتجاهات ،فإذا فزعت من شيء أخذ البصر ،مال عن سمته من التحول. [١] وقوله :(وإذ زاغت الأبصار) معطوف على ما قبله داخل معه في حكم التذكير ، أي : حين مالت عن سننها وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا . وقيل : عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها ؛ لشدة الروع . [٢]

= وأما ما ورد في سورة (ص) : (وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) .

فالضمير في (وقالوا) يعود على الطاغين المتقدم ذكرهم والحديث عنهم في الآيات الكريمة ، ويعنون بقولهم : (مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار) فقراء المسلمين الذين كانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم .

---

(١) ينظر : تفسير الشعراوي :١١٩٥٩/١٩.

(٢) ينظر : تفسير أبو السعود ٩٣/٧ ؛ والبحر المحيط : ٢١١/٧ ؛ والقاموس القويم : ٢٩٤/١ .

وقولهم :(أتخذناهم سخريا) بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل والجملة استئناف لا محل لها من الإعراب ، قالوه إنكارا على أنفسهم وتأنيبا لها في الاستسخار منهم .

(أم زاغت عنهم الأبصار) متصل ب(أتخذناهم) على أن أم متصلة ، والمعنى : أي الأمرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم الازدراء بهم وتحقيرهم ، وإن أبصارنا كانت تزيغ عنهم وتقتحمهم على معنى إنكار كل واحد من الفعلين على أنفسهم توبيخا لها . أو على أنها منقطعة والمعنى : أتخذناهم سخريا بل أزاغت عنهم أبصارنا . كقولك :" أزيد عندك أم عندك عمرو " .على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخار ، ثم الإضراب والانتقال منه إلى التوبيخ على الازدراء والتحقير . وقرئ اتخذناهم بغير همزة على أنه صفة أخرى ل (رجالا) فقوله تعالى : (أم زاغت) متصل بقوله : (مالنا لا نرى) والمعنى : مالنا لا نراهم في النار أليسوا فيها ؛ فلذلك لا نراهم (أم زاغت عنهم أبصارنا) وهم فيها . وقد جوز أن تكون الهمزة مقدرة على هذه القراءة ، وقرئ على هذه القراءة . وقرئ (سخريا) بضم السين . (١)

= وأما ما ورد في سورة النجم : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧)) .

فالمعنى : ما مال بصر النبي– صلى الله عليه وسلم – في ذلك المقام وفي تلك الحضرة المقدسة الشريفة يمينا وشمالا ولا جاوز ما رأى . وقيل ما أمر به ، وهذا وصف أدبه – صلى الله عليه وآله وسلم – ؛ إذ لم يقطع بصره عن المقصود وإن قلنا الذي يغشى السدرة هو نور رب العزة ، ففيه وجهان : أحدهما : أنه – صلى الله عليه وآله وسلم – لم يلتفت عنه يمنة ولا يسرة ،ولم يشتغل بغير مطالعة ذلك النور .

---

(١) ينظر:أبو السعود ٢٣٣/٧؛ والبحر المحيط :٣٨٩/٧ ، ٣٩٠؛ والسراج المنير للخطيب الشربيني: ٣/ ٤٠٠

الوجه الثاني : ما زاغ البصر بصعقة ولا غشية ، كما أخبر عن موسى بقوله:(وخر موسى صعقا) ؛ وذلك أنه لما تجلى رب العزة وظهر نور على الجبل ؛ قطع نظره وغشى عليه . ونبينا – صلى الله عليه وآله وسلم – ثبت في ذلك المقام العظيم الذي تحار فيه العقول ، وتزل الاقدام وتميل فيه الأبصار فوصف الله – عز وجل – قوة نبينا – صلى الله عليه وآله وسلم– في ذلك المقام العظيم بقوله تعالى : (ما زاغ البصر وما طغى) [١].

قال ابن عباس : ما زاغ البصر يمينا ولا شمالا ، ولا جاوز ما أمر به . وعلى هذا المفسرون ، فنفى عن نبيه ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء ، من التفاته يمينا وشمالا ، وجاوزه بصره لما بين يديه ، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام ، وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانبا ، ولم يمد بصره إلى غير ما رأى من الآيات ، وما هناك من العجائب ، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما أري ، دون التفاته إلى غيره ، ودون تطلعه إلى ما لم يره ، مع ما في ذلك من ثبات الجأش ، وسكون القلب ، وطمأنينته . وهذا غاية الكمال . وزيغ البصر التفاته جانبا ، وطغيانه مده أمامه إلى حيث ينتهي .

فنزه في هذه السورة ، وفي تلك الكلمات علمه عن الضلال ، وقصده وعمله عن الغي ، ونطقه عن الهوى ، وفؤاده عن تكذيب بصره ، وبصره عن الزيغ والطغيان . وهكذا يكون المدح [٢] .

---

(١) ينظر : تفسير الخازن : ٤ / ١٨٤ ؛ والبحر المحيط : ١٥٨/٨ ؛ وأبو السعود ١٥٧/٨ .

(٢) ينظر : بدائع التفسير لابن القيم : ٣ / ٧٦ ؛ و"التبيان في أقسام القرآن "لابن القيم ص١٧٣ ، ١٧٤ طبعة مكتبة المتنبي بالقاهرة (د.ت) ؛ وابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن : د/ عبد الفتاح لاشين : ص/ ١٩٣، ١٩٤دار الرائد العربي – بيروت ..

سمات منهج القرآن الكريم في وصف (البصر) بالزيغ :

بالتأمل في المواضع التي ورد فيها لفظ (الزيغ) ومشتقاته المصاحب للبصر يمكن تقرير ما يأتي :

أ- في الموضع الأول (آية الأحزاب) : جاء التعبير بالوصف في صورة الفعل الماضي المثبت ، المسبوق بإذ الظرفية ، والمعطوف بواو العطف على ما قبله . وقد جاء (البصر) مجموعا .

ب- وفي الموضع الثاني (آية ص) : (وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣)) : جاء التعبير بالوصف في صورة الفعل الماضي المثبت ، المسبوق ب(أم) العاطفة (متصلة أو منقطعة) على خلاف بين العلماء – الواردة في سياق الاستفهام الإنكاري المتقدم على (أم) . وقد جاء البصر مجموعا .

ج- في الموضع الثالث (آية النجم) : جاء التعبير بوصف الزيغ في صورة الفعل الماضي المنفي ب(ما) ، والمعطوف عليه صفة أخرى منفية (وما طغى) _ وقد جاء (البصر) مفردا .

ويمكن رصد سمات منهج القرآن الكريم في مصاحبة (البصر) اللفظية للزيغ في الآتي :

١- تنوع الوصف الوارد في أساليب خبرية مثبتة ومنفية ، مع توحد صورته في الفعل الماضي (زاغ) .

٢- المعنى العام للوصف الوارد هو الدلالة على الاضطراب وعدم التحقق من الرؤية .

٣- لم يرد الوصف ملازما لمقام معين ، وإنما تعددت مقاماته : فهو في موضع يصور حال الطاغين من الكفار ، وقد استولى عليهم الفزع والهول في جهنم

من شدة ما رأوه فيها ، وفي مقام آخر جاء الوصف مصورا حال لمؤمنين في غزوة الأحزاب ، وفي مقام ثالث جاء الوصف مصورا حال النبي الكريم عندما كان في المقام الأسمى ليلة المعراج ، وما رآه فيها من أمور عجيبة .

٤- اطراد استعمال الوصف الوارد في الكناية، فزيغ الأبصار كناية عن شدة الفزع ورؤية الأمور العجيبة المذلة .

رابعا : بلاغة وصف (البصر) بالعمى :

قوله تعالى في سورة الحج : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦))

العمى يقال في افتقاد البصر والبصيرة ، ويقال في الأول : أعمى ، وفي الثاني : أعمى ، وعم ، وعلى الأول قوله : (أن جاءه الأعمى) [عبس / ٢] ، وعلى الثاني ما ورد من ذم العمى في القرآن نحو قوله : (صم بكم عمي) [البقرة / ١٨] ، وقوله :(فعموا وصموا) [المائدة /٧١] ، بل لم يعد افتقاد البصر في جنب افتقاد البصيرة عمى حتى قال : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) [الحج / ٤٦] . (١)

يقول الماوردي : " قوله تعالى:(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور) يحتمل عندي وجهين :

أحدهما : أنها لا تعمى الأبصار عن الهدى ، ولكن تعمى القلوب عن الاهتداء .

والثاني : فإنها لا تعمى الأبصار عن الاعتبار ، ولكن تعمى القلوب عن الادكار .

---

(١) المفردات ص ٥٨٨ .

قال مجاهد : لكل إنسان أربع أعين : عينان في رأسه لدنياه ، وعينان قلبه لآخرته . فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه ؛ لم يضره عماه شيئا ، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه؛ لم ينفعه نظره شيئا " أ هـ [1]

وَالْفَاءُ فِي جُمْلَةِ (فَإِنَّها لَا تَعْمَى الْأَبْصارُ) تَفْرِيعٌ عَلَى جَوَابِ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ : فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ، وَفَذْلَكَةٌ لِلْكَلَامِ السَّابِقِ ، وَتَذْيِيلٌ لَهُ بِمَا فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْعُمُومِ . والضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار ، وفي (تعمى) ضمير راجع إليه ، وقد أقيم الظاهر مقامه (ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) أي : ليس الخلل في مشاعرهم ، وإنما هو في عقولهم باتباع الهوى والانهماك في الغفلة ، أَيْ : فَإِنَّ الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ طُرُقٌ لِحُصُولِ الْعِلْمِ بِالْمُبْصَرَاتِ وَالْمَسْمُوعَاتِ ، وَالْمُدْرِكَ لِذَلِكَ هُوَ الدِّمَاغُ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الدِّمَاغِ عَقْلٌ ؛ كَانَ الْمُبْصِرُ كَالْأَعْمَى وَالسَّامِعُ كَالْأَصَمِّ ، فَآفَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ هُوَ اخْتِلَالُ الْعَقْلِ . وَاسْتُعِيرَ الْعَمَى الثَّانِي لِانْتِفَاءِ إِدْرَاكِ الْمُبْصَرَاتِ بِالْعَقْلِ مَعَ سَلَامَةِ حَاسَّةِ الْبَصَرِ لِشَبَهِهِ بِهِ فِي الْحَالَةِ الْحَاصِلَةِ لِصَاحِبِهِ .

وَالتَّعْرِيفُ فِي الْأَبْصار ، والْقُلُوب ، والصُّدُور تَعْرِيفُ الْجِنْسِ الشَّامِلِ لِقُلُوبَ الْمُتَحَدَّثِ عَنْهُمْ وَغَيْرِهِمْ ، وَالْجَمْعُ فِيهَا بِاعْتِبَارِ أَصْحَابِهَا .

وَحَرْفُ التَّوْكِيدِ فِي قَوْلِهِ : (فَإِنَّها لَا تَعْمَى الْأَبْصارُ) لِغَرَابَةِ الْحُكْمِ ، لَا لِأَنَّهُ مِمَّا يُشَكُّ فِيهِ .

وَغَالِبُ الْجُمَلِ الْمُفْتَتَحَةِ بِضَمِيرِ الشَّأْنِ اقْتِرَانُهَا بِحَرْفِ التَّوْكِيدِ .

وَالْقَصْرُ الْمُسْتَفَادُ مِنَ النَّفْيِ وَحَرْفِ الِاسْتِدْرَاكِ قَصْرٌ ادِّعَائِيٌّ لِلْمُبَالَغَةِ بِجَعْلِ فَقْدِ حَاسَّةِ الْبَصَرِ الْمُسَمَّى بِالْعَمَى كَأَنَّهُ غَيْرُ عَمًى ، وَجَعْلِ عَدَمِ الِاهْتِدَاءِ إِلَى دَلَالَةِ

(١) النكت والعيون تفسير الماوردي : ٤ / ٣٢ تصنيف : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري – دار الكتب العلمية – بيروت (بدون تاريخ)

الْمُبْصَرَاتِ مَعَ سَلَامَةِ حَاسَّةِ الْبَصَرِ هُوَ الْعَمَى ؛ مُبَالَغَةً فِي اسْتِحْقَاقِهِ لِهَذَا الِاسْمِ الَّذِي اسْتُعِيرَ إِلَيْهِ ، فَالْقَصْرُ تَرْشِيحٌ لِلِاسْتِعَارَةِ .

وذكر الصدور للتأكيد ونفي توهم التجوز وفضل التنبيه على أن العمي الحقيقي ليس المتعارف الذي يختص بالبصر . قيل : لما نزل قوله تعالى : (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى) ، قال ابن مكتوم : يا رسول الله ، أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى ؟ ! فنزلت . (١)

فعمى الأبصار شيء هين ، إذا ما قيس بعمى القلوب ؛ لأن الإنسان إذا فقد رؤية البصر يمكنه أن يسمع ، وأن يعمل عقله ، وأن يهتدى ، وما لا يراه بعينه يمكن أن يخبره به غيره ، ويصفه له وصفا دقيقا وكأنه يراه ، لكن ما العمل إذا عميت القلوب ، والأبصار مبصرة ؟ وإذا كان لعمي الأبصار بديل وعوض ، فما البديل إذا عمى القلب ؟ الأعمى يحاول أن يتحسس طريقه ، فإن عجز قال لك : خذ بيدى ، أما أعمى القلب فماذا يفعل ؟ لذلك ، نقول لمن يغفل عن الشيء الواضح والمبدأ المستقر: أعمى قلب . يعني : طمس على قلبه فلا يعي شيئا.(٢)

= أما ماورد في سورة محمد من قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)) . فاسم الإشارة (أولئك) إشارة إلى من إذا تولى افسد في الأرض وقطع الأرحام بطريق الالتفات ؛ إيذانا بأن ذكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم . وهو مبتدأ خبره (الذين لعنهم الله) أي : أبعدهم من رحمته (فأصمهم) عن استماع الحق؛ لتصامهم عنه بسوء اختيارهم (وأعمى أبصارهم) ؛ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق ، وذلك أنهم لما سمعوا القرآن فلم يفهموه

(١) ينظر : تفسير أبي السعود : ٦ / ١١١ ؛ وحاشية شيخ زادة على البيضاوي ٣/ ٣٨٨ ؛ والتحرير والتنوير : ١٧ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) ينظر : تفسير الشعراوي : ١٦/ ٩٨٦ .

ولم يؤمنوا به وأبصروا طريق الحق فلم يسلكوه ولم يتبعوه ؛ فكانوا بمنزلة الصم العمى ، وإن كان لهم أسماع وأبصار في الظاهر . (١)

وجاء التركيب (فأصمهم) ولم يأت : " فأصم آذانهم " ، وجاء (وأعمى أبصارهم) ولم يأت (وأعماهم) . قيل : لأن الأذن لو أصمت لا تسمع الأبصار ، فالعين لها مدخل في الرؤية ، والأذن لها مدخل في السمع . (٢)

سمات منهج القرآن الكريم في وصف (البصر) بالعمى :

بالتأمل في الموضعين اللذين ورد فيهما مشتقات لفظ (العمى) المصاحبة للبصر يمكن تقرير ما يأتي :

أ- في الموضع الأول (آية الحج) : جاء التعبير بالوصف في صورة الفعل المضارع المنفي ، المسبوق ب(لا) النافية ،والمؤكد ب (إن) المشددة المقترنة بالفاء التعليلية .وقد جاء(البصر) مجموعا .

ب- وفي الموضع الثاني (آية محمد) : جاء التعبير بالوصف في صورة الفعل الماضي المثبت . وقد جاء (البصر) مجموعا .

ويمكن رصد سمات منهج القرآن الكريم في مصاحبة (البصر) اللفظية لمشتقات (العمى) في الآتي :

١- تنوع الوصف الوارد في أساليب خبرية مثبتة ومنفية ، مع تنوع صورته الفعلية بين المضارعية والماضوية (تعمى) و (أعمى) .

---

(١) ينظر : تفسير أبي السعود : ٨ / ٩٩ ؛ وتفسير الخازن : ٤ / ١٢٧ ؛ وتفسير السراج المنير – الخطيب الشربيني : ٣٠/٤ مطبعة علي بك جودت – بولاق مصر سنة ١٢٩٩هـ .

(٢) ينظر : البحر المحيط ٨٢/٨ .

٢- المعنى العام للوصف الوارد هو الدلالة على انعدام الأثر المترتب على آلة البصر ، وهو الاستدلال الصحيح على طريق الهدى ، المفضي إلى الإيمان بالله - عز وجل- والتصديق برسوله سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم- .

٣- جاء الوصف ملازما لمقام معين هو : التعجيب من حال هؤلاء الكفار في عدم الاعتبار بمصارع الأمم السابقة المكذبة لأنبيائها .

خامسا : بلاغة وصف (البصر) بالغشاوة " :

جاءت مصاحبة وصف الغشاوة ومشتقاته للفظ البصر في موضعين : الموضع الأول جاء في سياق الحديث عن التعجيب من حال الكفار ، وهو قوله تعالى في سورة البقرة : (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) . والغشاوة : ما يغطى به الشيء ، وغشيه غشاوة وغشاء : أتاه إتيان ما قد غشيه ، أي : ستره ، وغشي على فلان : إذا نابه ما غشي فهمه .[١] وقوله : (وعلى أبصارهم غشاوة) إشارة إلى زوال نعمة جسيمة بسبب الكفر ؛ إذ البصر من شأنه إذا استضاء نوره واتصل بنور الإيمان الساكن خلف شبيكته ممدا ومحركا له كان كل الكائنات كجنة مزينة بالزهر والحور ، ويصير نور العين نحلا تطير عليها فتجتني من تلك الأزاهير عصارة العبرة والفكرة والأنسية والاستيناس والتحبب والتهنئة ، فتأخذ حميلتها فتتخذ في الوجدان شهد الكمال . وإذا أظلم - العياذ بالله - ذلك البصر بالكفر طمس ، وصارت الدنيا في نظره سجنا ، وتسترت عنه الحقائق وتوحشت عليه الكائنات وتلقى إلى قلبه آلاما تحيط بوجدانه من الرأس إلى القدم .[٢]

---

(١) ينظر : المفردات للراغب : ص ٦٠٧ ، والبحر المحيط : ١ / ١٧٢ .

(٢) ينظر: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ص٧٨ تحقيق إحسان الصالحي دار سوزلر للنشر ط ثالثة ٢٠٠٢م.

وفي تغيير الأسلوب باختيار الجملة الاسمية للإيذان بدوام مضمونها ؛ فإن ما يدرك بالقوة الباصرة من الآيات المنصوبة في الآفاق والأنفس حيث كانت مستمرة كان تعاميهم من ذلك أيضا كذلك ، وأما الآيات التي تتلقى بالقوة السامعة فلما كان وصولها إليها حينا فحينا ؛ أوثر في بيان الختم عليها وعلى ما هي أحد طريقي معرفته أعنى القلب الجملة الفعلية . (١)

وقيل : إن ذلك إشارة إلى أن جنان البصر التي يجتني منها دلائله ثابتة دائمة ، بخلاف حدائق السمع والقلب ، فإنها متجددة . وفي إسناد الختم إلى الله – تعالى – دون الغشاوة إشارة إلى أن الختم جزاء كسبهم ، والغشاوة مكسوبة لهم ورمز إلى أن في مبدأ السمع والقلب اختيارا ، وفي مبدأ البصر اضطرارا ، ومحل الاختيار غشاوة التعامي .

وفي عنوان الغشاوة إشارة إلى أن للعين جهة واحدة . وتنكيرها للتنكير ، أي : التعامي حجاب غير معروف حتى يتحفظ منه ، وقيل : للتفخيم والتهويل .(٢) وقدم (على أبصارهم) ليوجه العيون إلى عيونهم ؛ إذ العين مرآة سرائر القلب .(٣) ويلاحظ هنا أنه قد وقع قوله : (وعلى سمعهم) بين شيئين يمكن أن يكون السمع محكوما عليه مع كل واحد منهما ، إذ يحتمل أن يكون أشرك في الختم بينه وبين القلوب ، ويحتمل أن يكون أشرك في الغشاوة بينه وبين الأبصار. لكن حمله على الأول أولى ؛ للتصريح بذلك في قوله : (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) ، وتكرير حرف الجر يدل على أن الختم ختمان ، أو على التوكيد إن كان الختم واحدا ، فيكون أدل على شدة الختم . (٤)

---

(١) ينظر : تفسير أبي السعود : ١ / ٣٨ .

(٢) تفسير أبي السعود : ١ / ٣٨ .

(٣) ينظر: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز : ص٨٥ (مرجع سابق) .

(٤) ينظر : البحر المحيط : ١ / ١٧٦ ؛ وتفسير الشعراوي : ١ / ١٤٣ .

وفي التعبير بقوله : (وعلى أبصارهم غشاوة) مجاز التشبيه ، شبه أبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية بالوعاء المختوم عليه المسدود منافذه المغشي بغشاء يمنع أن يصل إليه ما يصلحه ، لما كانت مع صحتها وقوة إدراكها ممنوعة عن قبول الخير وسماعه وتلمح نوره ، وهذا كله من مجاز التشبيه إذ الغشاوة لم توجد حقيقة وهي بالاستعارة أولى ؛ إذ من شرط التشبيه أن يذكر المشبه والمشبه به . (١)

وليس قوله : (وعلى سمعهم) خبرا مقدما ل (غشاوة) ؛ لأن الأسماع لا تناسبها الغشاوة ، وإنما يناسبها السد . ألا ترى إلى قوله تعالى : (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) ؛ ولأن تقديم قوله : (وعلى أبصارهم) دليل على أنه هو الخبر؛ لأن التقديم لتصحيح الابتداء بالنكرة ، فلو كان قوله : (وعلى سمعهم) هو الخبر لاستغنى بتقديم أحدهما وأبقى الآخر على الأصل من التأخير ، فقيل : " وعلى سمعهم غشاوة وعلى أبصارهم " .

وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر ؛ فإن التقديم مؤذن بأهمية المقدم ؛ وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل ، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع ، ولأن السمع ترد إليه الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه ، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلى التوجه بالالتفات إلى الجهات غير المقابلة . (٢)

وما سبق يفسر لنا دقة استعمال الغشاوة في جانب البصر ؛ وذلك لأنه يحتاج إلى تغطية تكون سببا في حجب الرؤية المؤدية إلى التفكر والاعتبار بما

---

(١) ينظر / البحر المحيط : ١/١٧٩ والإعجاز البلاغي في القرآن الكريم – محمد حسين سلامه – ص١٨ – دار الآفاق العربية ط أولى ٢٠٠٢ م

(٢) ينظر : التحرير والتنوير : ١ / ٢٥٨ .

يراه الرائي ، بخلاف القلب والسمع فهما ليسا في احتياج إليها ؛ لأنهما وسيلتا تفكر وتدبر ، والتفكر والتدبر يكونان عن طريق السماع ، فلما سدوا قلوبهم ؛ لم يكن هناك فائدة من سمعهم ؛ لذا ناسب ذلك التعبير بالختم دون الغشاوة .

أما الموضع الثاني ، فقد ورد في سياق التعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنه عبده ،يقول الحق– سبحانه وتعالى–:(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(٢٣) الجاثية . لَمَّا كَانَ فَرِيق الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ حَسِبُوا أَنْ يَكُونَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَوَاءً أَنْ يَكُونُوا فِي الْآخِرَةِ فِي نِعْمَةٍ وَعِزَّةٍ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا ؛ قَالُوا ذَلِكَ عَنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا نَظَرٍ وَلَكِنْ عَنِ اتِّبَاعِ مَا يَشْتَهُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ دَوَامِ الْحَالِ الْحَسَنِ ، تَفَرَّعَ عَلَى حُسْبَانِهِمُ التَّعْجِيبَ مِنْ حَالِهِمْ ، فَعُطِفَ بِالْفَاءِ الِاسْتِفْهَامُ الْمُسْتَعْمَلُ فِي التَّعْجِيبِ ، وَجُعِلَ اسْتِفْهَامًا عَنْ رُؤْيَةِ حَالِهِمْ ؛ لِلْإِشَارَةِ إِلَى بُلُوغِ حَالِهِمْ مِنَ الظُّهُورِ إِلَى حَدٍّ أَن تكون مرثية . وَأَصْلُ التَّرْكِيبِ : أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ إِلَخْ ، فَقُدِّمَتْ هَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ ، وَالْخطاب للنبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَالْمَقْصُودُ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، أَوِ الْخِطَابُ لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ ، أَيْ : تَنَاهَتْ حَالُهُمْ فِي الظُّهُورِ فَلَا يَخْتَصُّ بِهَا مُخَاطَبٌ . وَالْمَعْنَى : أَنَّ حِجَاجَهُمُ الْمُسْلِمِينَ مُرَكَّزٌ عَلَى اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالْمُغَالَطَةِ ، فلا نهوض لحجتهم لَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَلَا فِيمَا أَرَادُوهُ ، عَلَى فَرْضِ وُقُوعِ الْبَعْثِ مِنْ أَنْ يَكُونُوا آمِنِينَ مِنْ أَهْوَالِ الْبَعْثِ ، وَأَنَّهُمْ لَا يُرْجَى لَهُمُ اهْتِدَاءٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ غَيْرَ قَابِلِينَ لِلْهُدَى فَلَا يَسْتَطِيعُ غَيْرُهُ هُدَاهُمْ.[1] فقوله تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنه عبده . أي : أنظرت فرأيته فإن ذلك مما يقضي منه العجب . (وأضله الله) وخذله (على علم) أي : عالما بضلاله وتبديله لفطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها (وختم على

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٥ / ٣٥٧ .

سمعه وقلبه) بحيث لا يتأثر بالمواعظ ولا يتفكر في الآيات والنذر (وجعل على بصره غشاوة) مانعة عن الاستبصار والاعتبار (فمن يهديه من بعد الله) أي : من بعد إضلاله تعالى إياه بموجب تعاميه عن الهدى وتماديه في الغي (أفلا تذكرون) أي : ألا تلاحظون فلا تذكرون .[١].

وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ حَمَلَ مَنِ الْمَوْصُولَةَ فِي قَوْلِهِ :(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) عَلَى مُعَيَّنٍ فَقَالَ مُقَاتِلٌ : هُوَ أَبُو جَهْلٍ بِسَبَبِ حَدِيثٍ جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ كَانَا يَطُوفَانِ لَيْلَةً فَتَحَدَّثَا فِي شَأْنِ النبي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ إِنَّهُ لِصَادِقٌ . فَقَالَ لَهُ :

الْمُغِيرَةُ : مَهْ ، وَمَا دَلَّكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ ، قَالَ : كُنَّا نُسَمِّيهِ فِي صِبَاهُ الصَّادِقَ الْأَمِينَ ، فَلَمَّا تَمَّ عَقْلُهُ وَكَمُلَ رُشْدُهُ نُسَمِّيهِ الْكَذَّابَ الْخَائِنَ ! قَالَ : فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُؤْمِنَ بِهِ قَالَ : تَتَحَدَّثُ عَنِّي بَنَاتُ قُرَيْشٍ أَنِّي قَدْ اتَّبَعْتُ يَتِيمَ أَبِي طَالِبٍ مِنْ أَجْلِ كِسْرَةٍ ، وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى إِنِ اتَّبَعْتُهُ أَبَدًا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَإِذَا صَحَّ هَذَا فَإِنَّ مُطَابَقَةَ الْقِصَّةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ظَاهِرَةٌ) . وَعَنْ مُقَاتِلٍ أَيْضًا : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْحَارِثِ بْنِ قَيْسٍ السَّهْمِيِّ أَحَدِ الْمُسْتَهْزِئِينَ كَانَ يَعْبُدُ مِنَ الْأَصْنَامِ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي التَّحْذِيرِ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْهَوَى الْبَاعِثَ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَيَتْرُكُوا اتِّبَاعَ أَدِلَّةِ الْحَقِّ ، فَإِذَا كَانَ الْحَقُّ مَحْبُوبًا لِأَحَدٍ فَذَلِكَ مِنَ التَّخَلُّقِ بِمَحَبَّةِ الْحَقِّ تَبَعًا لِلدَّلِيلِ . [٢] وذكر الماوردي أن قوله - تعالى - : (وجعل على بصره غشاوة) يحتمل وجهين :

---

(١) ينظر : تفسير أبي السعود : ٨ / ٧٣ ؛ وتفسير السراج المنير للخطيب الشربيني :٣/ ٥٦٤ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٥ / ٣٥٩ .

- **أحدهما** : أنه خارج مخرج الخبر عن أحوالهم .

ـ **الثاني** : أنه خارج مخرج الدعاء بذلك عليهم . (١)

من أسرار المغايرة في النظم بين آيتي (البقرة) و (والجاثية) :

وبالنظر في آيتي البقرة والجاثية فيما يتعلق بالتعبير عن الوصف المصاحب للفظ البصر نجد اختلافا واضحا في اختصاص موضع سورة البقرة بالجملة الاسمية (وعلى أبصارهم غشاوة) ، بينما اختصت سورة الجاثية بالجملة الفعلية (وجعل على بصره غشاوة) . يقول السامرائي : " ثم قال في البقرة : (وعلى أبصارهم غشاوة) بالجملة الاسمية، والجملة الاسمية كما هو معلوم تفيد الدوام والثبوت ، ومعنى هذا أن هؤلاء لم يسبق لهم أن أبصروا ، وإنما هذا شأنهم وخلقتهم ، فلا أمل في إبصارهم في يوم من الأيام . في حين قال في الجاثية : (وجعل على بصره غشاوة) بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث ، ومعلوم أن (جعل) فعل ماض . ومعنى ذلك : أن الغشاوة لم تكن قبل الجعل ، يدلك على ذلك قوله تعالى : (وأضله الله على علم) ؛مما يدل على أنه كان مبصرا قبل ترديه. ثم ختم آية البقرة (وله عذاب عظيم)، ولم يقل مثل ذلك في الجاثية ؛ فدل على أن صفات الكفر في البقرة أشد تمكنا فيهم ". (٢) أهـ

سمات منهج القرآن الكريم في وصف (البصر) بالغشاوة :

بالتأمل في الموضعين اللذين ورد فيهما لفظ (الغشاوة) المصاحبة للبصر يمكن تقرير ما يأتي : في الموضعين جاء التعبير بالوصف في صورة الاسم ، مرفوعا – على القراءة المشهورة – في الموضع الأول على الابتداء ، وخبره

---

(١) ينظر : النكت والعيون تفسير الماوردي : ٥ / ٢٦٥ – تصنيف / أبو الحسن علي بن محمد الماوردي البصري – دار الكتب العلمية – بيروت (بدون تاريخ) .

(٢) التعبير القرآني – د / فاضل صالح السامرائي – ص / ٦٥ – دار عمار / عمان – ط رابعة – ٢٠٠٦ م .

الجار والمجرور المقدم عليه . ومنصوبا في الموضع الثاني (آية الجاثية) على المفعولية من الفعل (جعل) المقدم عليه وقد جاء لفظ (البصر) في كلا الموضعين مجموعا . ويمكن رصد سمات منهج القرآن الكريم في مصاحبة (البصر) اللفظية لمشتقات (العمى) في الآتي :

١- مجيء الوصف الوارد في أساليب خبرية مثبتة ، مع توحد صورته الاسمية .

٢- المعنى العام للوصف الوارد هو الدلالة على التغطية التي بنيت على ما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة .

٣- جاء الوصف في كلا الموضعين منكرا ؛ لإفادة التفخيم والتهويل ، وقد يكون التنكير مفيدا للتنكير ، أي : التعامي حجاب غير معروف حتى يتحفظ منه .

٤- جاء الوصف في الموضع الأول ملازما لمقام معين هو : التعجيب من حال هؤلاء الكفار ، وتشبيه قلوبهم – لتأبيها عن الحق ، وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح ، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية – بالوعاء المختوم عليه المسدود منافذه المغشي بغشاء يمنع أن يصل إليه ما يصلحه ، لما كانت مع صحتها وقوة إدراكها ممنوعة عن قبول الخير وسماعه وتلمح نوره . وفي الموضع الثاني جاء في مقام التعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى .

سادسا : بلاغة وصف (البصر) بالتقليب :

جاءت مصاحبة لفظ " التقلب " ومشتقاته في موضعين : الموضع الأول : ورد في سياق الحديث عن أصالة الكفار وعراقتهم في الكفر ؛ دفعا لتوهم أن عدم إيمانهم ناشئ من تقليبه – تعالى – مشاعرهم بطريق الإجبار ، وذلك في قوله – تعالى – في سورة الأنعام : (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

وتقليب الله القلوب والبصائر : صرفها من رأي إلى رأي . [١]

أو (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) في النار ؛ لأن البصر لم يؤد مهمته في الاعتبار ، والقلب لم يؤد مهمته في الفقه عن الله ، فيجازيهم الله من جنس ما عملوا بأن يقلب أبصارهم وقلوبهم في النار. [٢] ويقول أبو حيان : " فقد أخبر – تعالى – أنه يفعل بهم ذلك وهي إشارة إلى الحيرة ، والتردد ، وصرف الشيء عن وجهه . والمعنى : أنه تعالى يحولهم عن الهدى ويتركهم في الضلال والكفر . و(كما) للتعليل ، أي يفعل بهم ذلك لكونهم لم يؤمنوا به أول وقت جاءهم هدى الله . كما قال تعالى:(وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون)/ التوبة : ١٢٥ ، ويؤكد هذا المعنى آخر الآية (ونذرهم في طغيانهم يعمهون) أي : ونتركهم في تغمطهم في الشر والإفراط فيه يتحيرون. وهذا كله إخبار من الله – تعالى – بفعله بهم في الدنيا . وقالت فرقة : هذا الإخبار هو على تقدير أنه لو جاءت الآية التي اقترحوها صنعنا بهم ذلك .[٣]

ولذلك قال الزمخشري : " (ونقلب أفئدتهم) (ونذرهم) عطف على (لا يؤمنون) داخل في حكم (وما يشعركم) بمعنى: (وما يشعركم أنهم لا يؤمنون).(وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم) أي : فنطبع على قلوبهم وأبصارهم فلا يفقهون . ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا ، أو لا يؤمنون بها ؛ لكونهم مطبوعا على قلوبهم ، وما يشعركم أنا نذرهم في طغيانهم . أي : نخليهم وشأنهم لا نكفهم عن الطغيان حتى يعمهوا فيه " . [٤]

---

(١) ينظر : مفردات الراغب : ص ٦٨٢ .

(٢) ينظر : تفسير الشعراوي : ٧ / ٣٨٧٣ .

(٣) ينظر البحر المحيط : ٤ / ٢٠٥ .

(٤) الكشاف : ٢ / ٣٨٧ ، ٣٨٨ – تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، وآخران – مكتبة العبيكان – الرياض – الطبعة الأولى – ١٩٩٨ .

ومعنى تقليب القلب والبصر : ما ينشأ عن القلب والبصر من الدواعي إلى الحيرة والضلال ، لأن القلب والبصر يتقلبان بأنفسهما ، فنسبة التقليب إليهما مجاز وقدمت الأفئدة ؛ لأن موضع الدواعي والصوارف هو القلب . فإذا حصلت الداعية في القلب ؛ انصرف البصر إليه شاء أم أبى ، وإذا حصلت الصوارف في القلب انصرف البصر عنه . وإن كان تحديق النظر إليه ظاهرا . وهذه التفاسير على أن ذلك في الدنيا . وقالت فرقة : إن ذلك إخبار من الله – تعالى – يفعل بهم ذلك في الآخرة . [١] والتقليب : تحويل الشيء من وجه إلى وجه . وكان الواجب من مقتضى إنزال الآية ووصولهم إليها كما سألوا : أن يؤمنوا إذ جاءتهم ؛ لأنهم رأوها عيانا وعرفوا أدلتها وتحققوا صدقها . فإذا لم يؤمنوا كان ذلك تقليبا لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها الذي ينبغي أن تكون عليه .

وعلى هذا فقوله – تعالى – (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) عطف على (لا يؤمنون) داخل في حكم (ما يشعركم) مقيد بما فيد به أي : وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه ، لكن لا مع توجهها إليه واستعدادها لقبوله . بل لكمال نبوها عنه وإعراضها بالكلية ؛ ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم إشعارا بأصالتهم في الكفر وحسما لتوهم أن عدم إيمانهم ناشئ من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الإجبار . [٢]

وأما الموضع الثاني ، فقد ورد في سياق الحديث عن حال المؤمنين بين الرجاء والخوف ، وحال قلوبهم بين توقع النجاة وخوف الهلاك والأبصار من أي ناحية يؤخذ بهم ويؤتى كتابهم ، وذلك في قوله تعالى في سورة النور : (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (٣٦)

---

(١) ينظر : البحر المحيط : ٤ / ٢٠٦ ؛ وتفسير الشعراوي : ٣٨٧٢/٧ ، ٣٨٧٣ ؛ و(بدائع التفسير) لابن القيم :٣٦٣/١ ط دار ابن الجوزي طبعة أولى ١٤٢٧ ه .

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود : ٣ / ١٧٣ .

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) .

فقوله : (تتقلب فيه القلوب والأبصار) تضطرب وتتغير من الهول ، أو تتغلب أحوالها فتفقه القلوب ما لم تكن تفقه ، وتبصر الأبصار ما لم تكن تبصر ، أو تنقلب القلوب من توقع النجاة وخوف الهلاك والأبصار من أي ناحية يؤخذ بهم ويؤتى كتابهم . [١]

فمعنى (تتقلب فيه القلوب والأبصار) يعنى : رجفة القلب واضطراب حركته ، وما ينتابه من خفقان شديد ، ونحن نرى ما يصيب القلوب من ذلك لمجرد أحداث الدنيا ، فما بالك بهول الآخره ، وما يحدث من اضطراب في القلب ؟ . كذلك تضطرب الأبصار وتتقلب هنا وهناك ؛ لأنها حين ترى الفزع الذي يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وتنظر هنا علها ترى ما يطمئنها أو يخفف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعا آخر أشد وأنكى . لذلك ينتهى الموقف إلى : (خاشعة أبصارهم ..) .(قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة) يعني : ذليلة منكسرة حيث لا مفر ولا منجى ، ولن يجد في هذا اليوم راحة إلا من قدم له العمل الصالح .[٢]

سابعا : بلاغة مصاحبة لفظ " الغض " ومشتقاته للفظ (البصر) :

جاءت مصاحبة لفظ " الغض " بصيغة المضارع (يغض) في سياق متحد ، هو حديث القرآن الكريم عن بعض وسائل الوقاية من جريمة الزنا البشعة التي تقطع أواصر المجتمع المسلم ، وتعمل على تهتكه وزعزعة أمنه واستقراره ، وذلك في موضعين ، في سورة واحدة هي سورة (النور) ، قال تعالى : (قُلْ

(١) ينظر : تفسير البيضاوي ٤٣١/٣ مطبوع مع حاشية شيخ زادة ؛ وتفسير أبي السعود : ٦ / ١٧٩ .

(٢) ينظر : تفسير الشعراوي ١٠٢٨٢/١٧ .

لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)) / النور . ولفظ " الغض " المصاحب للبصر معناه : النقصان من الطرف ، والصوت ، وما في الإناء . يقال : غض وأغض . يقال : فلان يغض من قدر فلان يعني : ينقصه ، فكيف يكون النقصان في البصر ؟ أينظر بعين واحدة ؟ قالوا : البصر له مهمة ، وبه تتجلى المرائي ، والعين مجالها حر ترى كل ما أمامها سواء أكان حلالا لها أو محرما عليها . فنقص البصر يعني : قصره على ما أحل ، وكفه عما حرم ، فالنقص نقص في المرائي وفي مجال البصر ، فلا تعطي له الحرية المطلقة فينظر إلى كل شيء ، إنما توقفه عند أوامر الله فيما يرى وفيما لا يرى . (١)

تحدثت سورة النور من أولها عن مسألة الزنا والقذف والإحصان ، وحذرت من اتباع خطوات الشيطان التي تؤدي إلى هذه الجريمة ، وتحدثت عن التكافؤ في الزواج ، وأن الزاني للزانية والزانية للزاني ، والخبيثون للخبيثات والطيبون للطيبات .

وهذا منهج متكامل يضمن سلامة المجتمع والخليفة لله في أرضه ، فالله تعالى يريد مجتمعا تضيء فيه القيم السامية ، مجتمعا يخلو من وسائل المخالفة

(١) ينظر : المفردات للراغب : ص ٦٠٧ ، ٦٠٨ ؛ وتفسير الشعراوي : ١٦ / ١٠٢٥١ ، ١٠٢٥٢ .

والشحناء والبغضاء ، فلو أننا طبقنا منهج الله الذي ارتضاه لنا لارتاح الجميع في ظله .

ومسألة غض البصر التي يأمرنا بها ربنا – عز وجل – في هاتين الآيتين هي صمام الأمان الذي يحمينا من الانزلاق في هذه الجرائم البشعة ، ويسد الطريق دونها ؛ لذلك قال تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ..) . فالْغَضُّ: صَرْفُ الْمَرْءِ بَصَرَهُ عَنِ التَّحْدِيق وَتَثْبِيتِ النَّظَرِ. فللإنسان وسائل إدراكات متعددة ، وكل جهاز إدراك له مناط : فالأذن تسمع الصوت ، والأنف يشم الرائحة ، واللسان للكلام ، ولذوق المطعومات ، والعين لرؤية المرئيات ، لكن أفتن شيء يصيب الإنسان من ناحية الجنس هي حاسة البصر ؛ لذلك وضع الشارع الحكيم المناعة اللازمة في طرفي الرؤية في العين الباصرة وفي الشيء المبصر ، فأمر المؤمنين بغض أبصارهم ، وأمر المؤمنات بعدم إبداء الزينة ، وهكذا جعل المناعة في كلا الطرفين .

وحين تتأمل مسألة غض البصر تجدها من حيث القسمة العقلية تدور حول أربع حالات :

– **الأولى** : أن يغض هو بصره ولا تبدى هي زينتها ، فحظ الفتنة مقطوع من المرسل ومن المستقبل

– **الثانية** : أن يغض هو بصره وأن تبدى هي زينتها .

– **الثالثة** : أن ينظر هو ولا تبدى هي زينتها . وليس هناك خطر على المجتمع أو فتنة في هذه الحالات الثلاث فإذا توفر جانب انعدم الآخر .

– إنما الخطر في القسمة **الرابعة** : وهي أن ينظر هو ولا يغض بصره ، وأن تتزين هي وتبدي زينتها ، ففي هذه الحالة فقط يكون الخطر .[١]

---

(١) ينظر : تفسير الشعراوي : ٦ / ١٠٢٤٨ ، ١٠٢٤٩ .

وقوله : (قل للمؤمنين) شروع في بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجا أوليا ، وتلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم - وتفويض ما في حيزه من الأوامر والنواهي إلى رأيه - صلى الله عليه وسلم - ؛ لأنها تكاليف متعلقة بأمور جزئية كثيرة الوقوع حقيقة بأن يكون الآمر بها والمتصدي لتدبيرها حافظا ومهيمنا عليهم . ومفعول الأمر أمر آخر قد حذف تعويلا على دلالة جوابه عليه . أي : قل لهم غضوا (يغضوا من أبصارهم) عما يحرم ويقتصروا به على ما يحل (ويحفظوا فروجهم) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم . وتقييد الغض بمن التبعيضية دون الحفظ ؛ لما في أمر النظر من السعة . وقيل : المراد بالحفظ هنا خاصة هو الستر . (١)

وكما أمر الرجل بغض بصره ، كذلك أمرت المرأة بغض بصرها ؛ لأن اللفتة قد تكون أيضا للرجل ذي الوسامة و.. و.. ، فإن كان حظ المرأة في رجل تتقحمه العين ، فلربما نظرت إلى غيره ، فكما يقال في الرجال يقال في النساء . هذا الاحتياط وهذه الحدود التي وضعها الله - عز وجل - وألزمنا بها إنما هي لمنع هذه الجريمة البشعة التي بدئت بها هذه السورة ؛ لأن النظر أول وسائل الزنا ، وهو البريد لما بعده ، ألا ترى شوقي - رحمه الله - حين تكلم عن مراحل الغزل يقول :

نظرة فابتسامة فسلام ∴ فكلام فموعد فلقاء

فالأمر بغض البصر ليسد منافذ فساد الأعراض ، ومنع أسباب تلوث النسل؛ ليأتي الخليفة لله في الأرض طاهرا في مجتمع طاهر نظيف شريف لا يتعالى فيه أحد على أحد ، بأن له نسبا وشرفا ، والآخر لا نسب له .

---

(١) ينظر : تفسير أبي السعود : ٦ / ١٦٩ .

ونلحظ في قوله تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ..) دقة بلاغ الرسول عن ربه – عز وجل – وأمانته في نقل العبارة كما أنزلت عليه ، ففي هذه الآية كان يكفي أن يقول رسول الله : غضوا أبصاركم ، لكنه التزم بنص ما أنزل عليه ؛ لأن القرآن لم ينزل للأحكام فقط ، وإنما القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله والذي يتعبد بتلاوته ، فلا بد أن يبلغه الرسول كما جاءه من ربه . لذلك قال في البلاغ عن الله (قل) وفي الفعل(يغضوا) دلالة على ملحظية (قل)، فالفعل (يغضوا) مضارع لم تسبقه أداة جزم ، ومع ذلك حذفت منه النون ؛ ذلك لأنه جعل (قل) ملحظية في الأسلوب . والمعنى : إن تقل لهم غضوا أبصاركم يغضوا ، فالفعل – إذن– مجزوم في جواب الأمر (قل) . وعليه فيمكن القول إن اختيار صيغة المضارع لهذا الفعل المجزوم (يغضوا– يغضضن) نكتتان بيانيتان :

الأولى : هذا التجدد الاستمراري الذي تضفيه هذه الصيغة ، فكلما وقع الطرف على ما لا يحل كلما كان هذا الغض . والثانية : سرعة الاستجابة من قبل المؤمنين ؛ فبمجرد أن تلقوا الأمر كانت الاستجابة (غضوا يغضوا) (اغضضن – يغضضن) . (١)

وَلَمَّا كَانَ الْغَضُّ التَّامُّ لَا يُمْكِنُ جِيءَ فِي الْآيَةِ بِحَرْفِ مِنْ الَّذِي هُوَ لِلتَّبْعِيضِ؛ إيمَاءٌ إلَى ذَلِكَ إذْ مِنَ الْمَفْهُومِ أَنَّ الْمَأْمُورَ بِالْغَضِّ فِيهِ هُوَ مَا لَا يَلِيقُ تَحْدِيقُ النَّظَرِ إلَيْهِ ، وَذَلِكَ يَتَذَكَّرُهُ الْمُسْلِمُ مِن اسْتِحْضَارِهِ أَحْكَامَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ فِي هَذَا الشَّأْنِ فَيَعْلَمُ أَنَّ غَضَّ الْبَصَرِ مَرَاتِبٌ : مِنْهُ وَاجِبٌ ، وَمِنْهُ دُونُ ذَلِكَ ، فَيَشْمَلُ غَضُّ الْبَصَرِ عَمَّا اعْتَادَ النَّاسُ كَرَاهِيَةَ التَّحَقُّقِ فِيهِ كَالنَّظَرِ إلَى خَبَايَا الْمَنَازِلِ ، بِخِلَافِ مَا لَيْسَ كَذَلِكَ .

---

(١) ينظر : " آيتا غض البصر من سورة النور : دراسة تحليلية بيانية " – جهاد محمد النصيرات – ص ٩٤ – بحث منشور في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية – المجلد الخامس – العدد الأول – ٢٠٠٩ م .

وقيل : إن (من) هنا لتأكيد العموم في أدنى مراحله ، فهناك فرق بين قولك : " ما عندي مال " ، وقولك : " ما عندي من مال " : " ما عندي مال " ، يحتمل أن يكون عندك مال قليل لا يعتد به . لكن " ما عندي من مال " نفي لجنس المال مهما قل . ف (من) تعنى بداية ما يقال له مال .فالمعنى هنا : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ..) يعني : بداية ما يقال له بصر ، ولو لمحة خاطفة ، ناهيك عن التأمل وإدامة البصر . (١)

ثامنا : بلاغة مصاحبة لفظ " الشهادة " ومشتقاته للفظ (البصر) :

جاءت مصاحبة ما اشتق من لفظ (الشهادة) للفظ (البصر) مجموعا في موضعين : بصيغتي الماضي مرة ، والمضارع مرة أخرى ، وكلاهما جاء في سياق متحد ، وفي سورة واحدة من الذكر الحكيم ، هي سورة (فصلت) ، وذلك في قول الحق سبحانه وتعالى : (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) . ولفظ الشهادة المصاحب للبصر في الآيات الكريمة يعني في اللغة كما ذكر الراغب: الحضور مع المشاهدة ؛ إما بالبصر ، أو بالبصيرة ، وقد يقال للحضور مفردا ، قال الله تعالى : (عالم الغيب والشهادة) [السجدة /٦] لكن الشهود بالحضور المجرد أولى ، والشهادة مع المشاهدة أولى . ويقال : شهدت كذا ، أي: حضرته ، وشهدت على كذا . (٢)

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٨ / ٢٠٥ : ٢٠٩؛ وتفسير الشعراوي: ١٠٢٤٩:١٠٢٥٢/١٦ .
(٢) ينظر : المفردات : ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

وفي الآيات الكريمة نجد أن الله – تعالى – بعد أن بين عقوبة الكافرين العاجلة في الآيات السابقة شرع في بيان عقوباتهم الآجلة ، وفي التعبير عنهم ب(أعداء الله) بيان لذمهم ، وإيذانا بعلة ما يحيق بهم من ألوان العذاب . وقوله : (إذا ما جاءوها) أي : جميعا . غاية ليحشر أو ليوزعون ، أي : حتى إذا حضروها ، وما مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور ؛لأنها تؤكد ما زيدت بعده ،فهي تؤكد معنى (إذا) ،و(إذا) دالة على اتصال الجواب بالشرط ؛ لوقوعهما في زمان واحد .وقوله : (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) في الدنيا من فنون الكفر والمعاصي بأن ينطقها الله – تعالى – ، أو يظهر عليها آثار ما اقترفوا بها . [١] وفي الكلام حذف ؛ لأن التقدير : " حتى إذا ما جاؤها وسئلوا عما أجرموا فأنكروا (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) . واكتفي عن المحذوف بذكر الشهادة ؛ لاستلزامها إياه ، ولا يأبى التقدير تأكيد الاتصال ؛ إذ يكفي للاتصال وقوع ذلك في مجلس واحد . وقد رجح الألوسي ان المراد بالجلود في الآية ما سوى السمع والبصر المذكورين فيها ، وأن ذكر السمع فيها ؛ لما أنه وسيلة إدراك أكثر الآيات التنزيلية . وذكر البصر ؛ لما أنها وسيلة إدراك أكثر الآيات التكوينية . [٢] وقوله تعالى (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) حكاية لما سيقال لهم يومئذ من جهته – تعالى – بطريق التوبيخ والتقريع ، تقريرا لجواب الجلود . أي : ما كنتم تستترون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون من الناس مخافة الافتضاح عندهم ، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأسا . [٣]

---

(١) ينظر : روح المعاني : ٢٤ / ١١٥ – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان ؛ وأبو السعود ٨/ ٩ ، ١٠

(٢) ينظر : روح المعاني : ٢٤ / ١١٥ .

(٣) ينظر : روح المعاني : ٢٤ / ١١٦ ، وأبو السعود : ٨ / ١٠ .

وبين الشاهد وعدده بقوله تعالى (سمعهم) ، وأفرد السمع ؛ لعدم تفاوت الناس فيه ، (وأبصارهم) وجمعها ؛ لعظم تفاوت الناس فيها (وجلودهم بما كانوا يعملون) أي : يجددون عمله مستمرين عليه وفي كيفية تلك الشهادة ثلاثة أقوال :

أولها : أن الله تعالى – يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه .

ثانيها : أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعاني .

ثالثها : أن يظهر في تلك الأعضاء أحوالا تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان ، وتلك الأمارات تسمى شهادات ، كما يقال : يشهد هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه

تاسعا : بلاغة مصاحبة لفظ " الخطف " ومشتقاته للفظ (البصر) :

قال تعالى :(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)) / البقرة.
الخطف والاختطاف : الاختلاس بالسرعة ، أو أخذ الشيء بسرعة . (١)

وجملة (يكاد البرق يخطف) لا محل لها من الإعراب ؛ إذ هي مستأنفة جواب قائل قال : كيف يكون حالهم مع ذلك البرق ؟ فقيل : يكاد يخطف . ويحتمل

(١) المفردات – الراغب : ص ٢٨٦ .

أن يكون في محل جر صفة لذوي المحذوفة. التقدير: أو كذوي صيب كائد البرق يخطف . (١)

فالله – سبحانه وتعالى – يريد أن يلفتنا إلى أن البرق الذي هو وقتي وزمنه قليل ، هو الذي يسترعى انتباههم . ولو آمنوا لأضاء نور الإيمان والإسلام طريقهم . ولكن قلوبهم مملوءة بظلمات الكفر فلا يرون طريق النور .. والبرق يخطف أبصارهم ، أي : يأخذها دون إرادتهم . فالخطف يعني أن الذي يخطف لا ينتظر الإذن ، والذي تم الخطف منه لا يملك القدرة على منع الخاطف . والخطف غير الغصب . فالغصب أن تأخذه دون إرادة صاحبه ودون أن يستطيع منعك ، والغصب أن تأخذ الشيء رغم إرادة صاحبه باستخدام القوة أو غير ذلك بحيث يصبح عاجزا عن منعك من أخذ هذا الشيء .

وكاد من أفعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لتآخذ أسبابه وتعاضد مباديه ، لكنه لم يوجد بعد ؛ لفقد شرط أو لعروض مانع . والمعنى : يكاد أو يقترب البرق من أن يخطف أبصارهم . وليس للإنسان القدرة أن يمنع هذا البرق من أن يأخذ انتباه البصر .(٢)

ويقول النورسي : " وأما هيئات جملة : (يكاد البرق يخطف أبصارهم) فاستئنافها يشير إلى أن السامع يقول : ألا ينتفعون بالبرق المخفف لبلاء الظلمة عنهم ؟ فأجيب بأنهم يخافون من الضرر فضلا عن الفائدة . وأما (يكاد) فيشير باعتبار خاصته المشهورة إلى وجود سبب زوال البصر لكن لم يزل ؛ لوجود مانع وأما (يخطف) باعتبار استعماله كاختطفته الغول والعقاب ، ففيه بلاغة لطيفة تبرق للذهن وتشير إلى أن البرق يسابق شعاع العين من قبل أن يصل إلى الأشياء

---

(١) ينظر : البحر المحيط : ١ / ٢٢٧ ؛ والدر المصون في علوم الكتاب المكنون – السمين الحلبي١/١٧٩. تحقيق د/ أحمد محمد الخراط – دار القلم / دمشق .

(٢) ينظر : أبو السعود : ١ / ٥٤ ، ٥٥ ؛ وتفسير الشعراوي : ١ / ١٨٠ ،١٨١ .

ليأخذ صورها يمر هو عليه فيقطعه ويضرب على جفنه فيذهب بنوره . كأن نور العين لما خرج من بيته مسرعا لاجتناء صور الأشياء يسارع البرق الذي هو شعاع عين الليل ، فيأخذ من يد شعاع العين صورته قبل إيصاله إلى المخزن ، أي يختلس البرق صورته من يده . وأما (أبصارهم) فرمز – بناء على كونها مرآة للقلوب – إلى عمل بصائر المنافقين المتعامية عن البراهين القاطعة القرآنية .(١)

وقد صيغ هذا المعنى في هذا الأسلوب لما فيه من التوجيه بالتهديد لهم أن يذهب الله سمعهم وأبصارهم من نفاقهم إن لم يبتدروا الإقلاع عن النفاق وذلك يكون له وقع الرعب في قلوبهم . (٢)

تاسعا : بلاغة مصاحبة لفظ " الصرف " ومشتقاته للفظ (البصر) :

جاءت مصاحبة لفظ (صرف) للفظ البصر في الذكر الحكيم مرة واحدة في سياق الحديث عن أهل الأعراف يوم القيامة ، وذلك بصيغة الفعل المبني للمفعول ، في قوله تعالى :(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) / الأعراف الصَّرْفُ : أَمر الْحَالِ بِمُغَادَرَةِ الْمَكَانِ . وَالصَّرْفُ هُنَا مَجَازٌ فِي الِالْتِفَاتِ أَوِ اسْتِعَارَةٌ .

وَإِسْنَادُهُ إِلَى الْمَجْهُولِ هُنَا جَارٍ عَلَى الْمُتَعَارَفِ فِي أَمْثَالِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي لَا يُتَطَلَّبُ لَهَا فَاعِلٌ ، وَقَدْ تَكَوَّنَ لِهَذَا الْإِسْنَادِ هُنَا فَائِدَةٌ زَائِدَةٌ وَهِيَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْلِ النَّارِ إِلَّا نَظَرًا شَبِيهًا بِفِعْلِ مَنْ يَحْمِلُهُ عَلَى الْفِعْلِ حَامِلٌ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ وَإِنْ كَانَتْ تَكْرَهُ الْمَنَاظِرَ السَّيِّئَةَ فَإِنَّ حُبَّ الِاطِّلَاعِ يَحْمِلُهَا عَلَى أَنْ تُوَجِّهَ النَّظَرَ إِلَيْهَا آوِنَةً لِتَحْصِيلِ مَا هُوَ مَجْهُولٌ لَدَيْهَا . (٣)

---

(١) إشارات الإعجاز – النورسي : ١٤٣ .
(٢) ينظر : التحرير والتنوير : ١ / ٣٢٣ .
(٣) ينظر : المرجع السابق : ٨ / ١٤٣ ، ١٤٤ .

وفي عدم التعرض لتعلق أنظارهم بأصحاب الجنة ، والتعبير عن تعلق أبصارهم بأصحاب النار بالصرف إشعار بأن التعلق الأول بطريق الرغبة،والميل الثاني بخلافه.(١)

إذن فالمسألة ليست اختيارية ؛ لأنهم يكرهون أن ينظروا لهم ؛ لأنهم ملعونون ، وكأن في (صرفت أبصارهم) لونا من التوبيخ لأهل النار.(٢) وعلى هذا ففي قوله (صرفت) دليل أن أكثر أحوالهم النظر إلى تلقاء أصحاب الجنة وأن نظرهم إلى أصحاب النار هو بكونهم (صرفت أبصارهم) تلقاءهم ، فليس الصرف من قبلهم بل هم محمولون عليه مفعول بهم ذلك ؛ لأن ذلك المطلع مخوف من سماعه ، فضلا عن رؤيته ، فضلا عن التلبس به . والمعنى : أنه إذا حملوا على صرف أبصارهم ورأوا ما هم عليه من العذاب ؛ استغاثوا بربهم من أن يجعلهم معهم . (٣)

وفي هذا دليل على أنه بمكان مرتفع بين الجنة والنار . فإذا أشرفوا على أهل الجنة ؛ نادوهم بالسلام ، وطمعوا في الدخول إليها ، وإذا أشرفوا على أهل النار ؛ سألوا الله أن لا يجعلهم معهم . (٤)

عاشرا : بلاغة مصاحبة لفظ " الإدراك " ومشتقاته للفظ (البصر) :

قوله تعالى :(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) / الأنعام قال الزجاج : أعلم – عز وجل – أنه يدرك الأبصار، وفي هذا الإعلام دليل أن خلقه لا يدركون الأبصار ، أي : لا يعرفون كيف حقيقة البصر

(١) ينظر : أبو السعود ٢٣٠/٣ ؛ والمفردات للراغب : ص٤٨٢ .
(٢) ينظر : تفسير الشعراوي : ٤١٥١/٧ .
(٣) ينظر: حاشية شيخ زاده على القاضي البيضاوي : ٢/ ٣٤٢ المطبعة العثمانية ١٤١٥ه / ١٩٩٥م .
(٤) ينظر : بدائع التفسير – ابن القيم : ٣٩٤/١ .

،وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر بعينه دون أن يبصر بغيرهما من سائر أعضائه ،فأعلم أن خلقا من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ولا يحيطون بعلمه ، فكيف به- تعالى- والأبصار لا تحيط به وهو اللطيف الخبير. (١) فالأبصار لا تحيط بعظمته وجلاله على ما هو عليه أبصار الخلائق في الدنيا والآخرة أو لا تدركه الأبصار إدراك إحاطة بكنهه وحقيقته ، فإن ذلك محال ، والإدراك بهذا المعنى أخص من الرؤية التي هي مجرد المعاينة ، فنفيه لا يقتضي نفي الرؤية ، إذ نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم . فأنت ترى القمر ولكنك لا تدرك حقيقته ؛ ولذلك أثبت أهل السنة رؤية المؤمنين له – تعالى – في الآخرة كما قال تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة . الى ربها ناظرة) . وذهب بعض السلف إلى أن الآية مخصوصة بالدنيا . (٢) وقوله : (وهو يدرك الأبصار) أي : وهو يدرك القوة التي تدرك بها المبصرات ويحبط بها علما إذ هو خالق القوى والحواس .

ومما هو جدير بالتنبيه عليه هنا أن ذكر البصر في الآية قد جاء مفردا فلم يذكر معه السمع ؛ وذلك أخذا على المعتاد من المطابقة بين الألفاظ ومعانيها – مفردة وغير مفردة – ؛ فالمجال هنا ليس مجال مفاضلة أو ترجيح بين الحواس، وإنما هو البصر كما يراه الله – تعالى – على حقيقته ، حاسة من الحواس لا

---

(١) معاني القران وإعرابه أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج : ٢/٢٢٥ – تح / عبد الجليل شلبي / دار الكتب القاهرة (د. ت) ؛ وينظر : مختصر تفسير ابن كثير:ج١/ ٦٢٣ لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي – ط أولى / صنعه أ / محمد علي الصابوني / دار إحياء التراث العربي / بيروت.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) – عبد الله بن عمر البيضاوي – : ٢/ ١٧٦ دار إحياء التراث العربي – بيروت / ١٩٩٨م ؛ وينظر : التحرير والتنوير : ٧ / ٤١٥ ، ٤١٦ ؛ وصفوة البيان لمعاني القران – ص١٨٦ – الشيخ حسنين محمد مخلوف / ط ثالثة / الكويت ١٩٨٧م .

غير. والله أعلم بمراده وجملة (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) جُمْلَةٌ ابْتِدَائِيَّةٌ لِإِفَادَةِ عَظَمَتِهِ – تَعَالَى – وَسَعَةِ عِلْمِهِ ، فَلِعَظَمَتِهِ جَلَّ عَنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ شَيْءٌ مِنْ أَبْصَارِ الْمَخْلُوقِينَ ، وَذَلِكَ تَعْرِيضٌ بِانْتِفَاءِ الْإِلَهِيَّةِ عَنِ الْأَصْنَامِ الَّتِي هِيَ أَجْسَامٌ مَحْدُودَةٌ مَحْصُورَةٌ مُتَحَيِّزَةٌ ، فَكَوْنُهَا مُدْرَكَةً بِالْأَبْصَارِ مِنْ سِمَاتِ الْمُحْدَثَاتِ لَا يَلِيقُ بِالْإِلَهِيَّةِ وَلَوْ كَانَتْ آلِهَةً لَكَانَتْ مُحْتَجِبَةً عَنِ الْأَبْصَارِ .

وَالْإِدْرَاكُ حَقِيقَتُهُ الْوُصُولُ إِلَى الْمَطْلُوبِ . وَيُطْلَقُ مَجَازًا عَلَى شُعُورِ الْحَاسَّةِ بِالْمَحْسُوسِ أَوِ الْعَقْلِ بِالْمَعْقُولِ يُقَالُ : أَدْرَكَ بَصَرِي وَأَدْرَكَ عَقْلِي تَشْبِيهًا لِآلَةِ الْعِلْمِ بِشَخْصٍ أَوْ فَرَسٍ وَصَلَ إِلَى مَطْلُوبِهِ تَشْبِيهَ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ ، وَيُقَالُ : أَدْرَكَ فُلَانٌ بِبَصَرِهِ وَأَدْرَكَ بِعَقْلِهِ، وَلَا يُقَالُ: أَدْرَكَ فُلَانٌ بِدُونِ تَقْيِيدٍ، وَاصْطَلَحَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْحُكَمَاءِ عَلَى تَسْمِيَةِ الشُّعُورِ الْعَقْلِيِّ إِدْرَاكًا ، وَجَعَلُوا الْإِدْرَاكَ جِنْسًا فِي تَعْرِيفِ التَّصَوُّرِ وَالتَّصْدِيقِ ، وَوَصَفُوا صَاحِبَ الْفَهْمِ الْمُسْتَقِيمِ بِالدَّرَّاكَةِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِسْنَادُ الْإِدْرَاكِ إِلَى اسْمِ اللَّهِ مُشَاكَلَةً لِمَا قَبْلَهُ مِنْ قَوْلِه : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصار) . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْإِدْرَاكُ فِيهِ مُسْتَعَارًا لِلتَّصَرُّفِ لِأَنَّ الْإِدْرَاكَ مَعْنَاهُ النَّوَالُ .

وَالْأَبْصَارُ جَمْعُ بَصَرٍ ، وَهُوَ اسْمٌ لِلْقُوَّةِ الَّتِي بِهَا النَّظَرُ الْمُنْتَشِرَةِ فِي إِنْسَانِ الْعَيْنِ الَّذِي فِي وَسَطِ الْحَدَقَةِ وَبِهِ إِدْرَاكُ الْمُبْصَرَاتِ . وَالْمَعْنَى: لَا تُحِيطُ بِهِ أَبْصَارُ الْمُبْصِرِينَ ؛ لِأَنَ الْمُدْرِكَ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الْمُبْصِرُ لَا الْجَارِحَةُ ، وَإِنَّمَا الْجَارِحَةُ وَسِيلَةٌ لِلْإِدْرَاكِ ؛ لِأَنَّهَا تُوَصِّلُ الصُّورَةَ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ فِي الدِّمَاغِ . وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا بَيَانُ مُخَالَفَةِ خُصُوصِيَّةِ الْإِلَهِ الْحَقِّ عَنْ خُصُوصِيَّاتِ آلِهَتِهِمْ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُرَى وَأَصْنَامُهُمْ تُرَى ، وَتِلْكَ الْخُصُوصِيَّةُ مُنَاسِبَةٌ لِعَظَمَتِهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ عَدَمَ إِحَاطَةِ الْأَبْصَارِ بِالشَّيْءِ يَكُونُ مِنْ عَظَمَتِهِ فَلَا تُطِيقُهُ الْأَبْصَارُ، فَعُمُومُ النَّكِرَةِ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ يَدُلُّ عَلَى انْتِفَاءِ أَنْ يُدْرِكَهُ شَيْءٌ مِنْ أَبْصَارِ الْمُبْصِرِينَ فِي الدُّنْيَا كَمَا هُوَ السِّيَاقُ .

وَقَوْلُهُ: وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ مَعْطُوفٌ عَلَى جُمْلَةِ : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ) فَإِسْنَادُ الْإِدْرَاكِ إِلَى ضَمِيرِ اسْمِهِ تَعَالَى ؛ إِمَّا لِأَنَّ فِعْلَ يُدْرِكُ اسْتُعِيرَ لِمَعْنَى يَنَالُ ، أَيْ : لَا تَخْرُجُ عَنْ تَصَرُّفِهِ كَمَا يُقَالُ : لَحِقَهُ فَأَدْرَكَهُ ، فَالْمَعْنَى يَقْدِرُ عَلَى الْإِبْصَارِ ، أَيْ عَلَى الْمُبْصِرِينَ ؛ وَإِمَّا لِاسْتِعَارَةِ فِعْلِ يُدْرِكُ لِمَعْنَى يَعْلَمُ لِمُشَاكَلَةِ قَوْلِهِ : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ) أَيْ : لَا تَعْلَمُهُ الْأَبْصَارُ . وَذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنِ الْعِلْمِ بِالْخَفِيَّاتِ لِأَنَّ الْأَبْصَارَ هِيَ الْعَدَسَاتُ الدَّقِيقَةُ الَّتِي هِيَ وَاسِطَةُ إِحْسَاسِ الرُّؤْيَةِ أَوْ هِيَ نَفْسُ الْإِحْسَاسِ وَهُوَ أَخْفَى. وَجَمْعُهُ بِاعْتِبَارِ الْمُدْرِكِينَ.

وَفِي قَوْلِهِ: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ مُحَسِّنُ الطِّبَاق . [١]

حادي عشر : بلاغة مصاحبة لفظ " السكر " ومشتقاته للفظ (البصر)

قال تعالى : (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) / الحجر . السكر (بضم السين المشددة وسكون الكاف) : حالة تعرض بين المرء وعقله ، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشراب ، وقد يعتري من الغضب والعشق .والسكر(بفتح السين المشددة مع سكون الكاف) : حبس الماء ، وذلك باعتبار ما يعرض من السد بين المرء وعقله ، والسكر : الموضع المسدود ، وقوله تعالى : (إنما سكرت أبصارنا) الحجر/ ١٥ قيل : هو من السكر ، وقيل : هو من السكر.[٢] وقوله : (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ) عُطِفَ عَلَى جُمْلَةِ (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ) الْحجر : ١٣ وَهُوَ كَلَامٌ جَامِعٌ لِإِبْطَالِ جَمِيعِ مَعَاذِيرِهِمْ من قَوْلهم : (لَوْ مَا تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ) الْحجر [٧] ، وَقَوْلهمْ (إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) الْحجر: ٦ بِأَنَّهُمْ لَا يَطْلُبُونَ الدَّلَالَةَ عَلَى صِدْقِهِ ؛ لِأَنَّ دَلَائِلَ الصِّدْق بَيِّنَةٌ ، وَلَكِنَّهُمْ يَنْتَحِلُونَ الْمَعَاذِيرَ الْمُخْتَلِفَةَ .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٧ / ٤١٤- ٤١٧ .

(٢) المفردات : ص ٤١٦ .

وَالْكَلَامُ الْجَامِعُ لِإِبْطَالِ مَعَاذِيرِهِمْ : أَنَّهُمْ لَوْ فَتَحَ اللَّهُ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ حِينَ سَأَلُوا آيَةً عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَيْ : بِطَلَبٍ مِنَ الرَّسُولِ فَاتَّصَلُوا بِعَالَمِ الْقُدُسِ وَالنُّفُوسِ الْمَلَكِيَّةِ وَرَأَوْا ذَلِكَ رَأْيَ الْعَيْنِ لَاعْتَذَرُوا بِأَنَّهَا تَخَيُّلَاتٌ وَأَنَّهُمْ سُحِرُوا فَرَأَوْا مَا لَيْسَ بِشَيْءٍ شَيْئًا .

وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ : (وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) [سُورَة الْأَنْعَام : ٧] . وَ (ظَلَّ) تَدُلُّ عَلَى الْكَوْنِ فِي النَّهَارِ ، أَيْ : وَكَانَ ذَلِكَ فِي وَضَحِ النَّهَارِ وَتَبَيُّنِ الْأَشْبَاحِ وَعَدَمِ التَّرَدُّدِ فِي الْمَرْئِيِّ .

وَالْعُرُوجُ : الصُّعُودُ . وَيَجُوزُ فِي مُضَارِعِهِ ضَمُّ الرَّاءِ وَبِهِ الْقِرَاءَةُ وَكَسْرُهَا، أَيْ : فَكَانُوا يَصْعَدُونَ فِي ذَلِكَ الْبَابِ نَهَارًا .

وسُكِّرَتْ– بِضَمِّ السِّينِ وَتَشْدِيدِ الْكَافِ– فِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ ، وَبِتَخْفِيفِ الْكَافِ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ كَثِيرٍ. وَهُوَ مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ ، أَيْ : سُدَّتْ . يُقَالُ: سَكَّرَ الْبَابَ بِالتَّشْدِيدِ وَسَكَرَهُ بِالتَّخْفِيفِ إِذَا سَدَّهُ . وَالْمَعْنَى : لَجَحَدُوا أَنْ يَكُونُوا رَأَوْا شَيْئًا .[١]

وقد عبر بها الكافرون عما يريدون أن يوهموا به ، عما حدث لأبصارهم من الزيغ فكانت كلمة (سكرت) ، وهي مأخوذة من السكر دالة أشد دلالة على هذا الاضطراب في الرؤية ، ولاسيما أن هذا السكر قد أصاب العين واستقل بها ، ومعلوم أن الخلط من خصائص السكر ، فلا يتبين السكران ما أمامه ، ولا يميزه على الوجه الحق . [٢]

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ١٤ / ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) ينظر : من بلاغة القرآن – أحمد بدوي : ص ٥٩ .

وفي كلمتي الحصر والإضراب دلالة على أنهم يبتون القول بذلك وأن ما يرونه لا حقيقة له وإنما هو أمر خيل إليهم بالسحر ، وفي اسمية الجملة الثانية دلالة على دوام مضمونها ، وإيرادها بعد تسكير الأبصار ؛ لبيان إنكارهم لغير ما يرونه ؛ فإن عروج كل منهم إلى السماء وإن كان مرئيا لغيره ، فهو معلوم بطريق الوجدان مع قطع النظر عن الإبصار فهم يدعون أن ذلك نوع آخر من السحر غير تسكير الأبصار . (١)

ثاني عشر : **بلاغة مصاحبة لفظ " الطبع " ومشتقاته للفظ (البصر)** :

قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) / النحل . في اللغة يفسرون – غالبا – الطبع بالختم، ويفسرون الختم بالطبع ؛ فبين الكلمتين تشابه . وقد وردت لفظة البصر مصاحبة للفعل الماضي (طبع) ،المبني للمعلوم ، المسند إلى الاسم الظاهر (الله) – عز وجل – ولم يأت معها اسم ولا مصدر قط . وقد وقع الطبع على البصر مقرونا بالسمع والقلوب ، كما قرن الطبع بصفات ذم أخرى لاحقة له ؛ حيث وصفوا ب (الغافلون) بعد الطبع . كما جاء هذا الموضع مقصورا على مقام الذم وسوء العقاب والمصير .

وبالتأمل في المادة اللغوية للفظة (طبع) نجد أن لها مصدرين في اللغة: أحدهما :الطبع (بسكون الباء) ، ويدور معناه بين ضرب الدراهم وصنع السيوف، والجبلة التي خلق عليها الإنسان . والثاني : الطبع (بفتح الباء) : ومعناه : الدنس والصدأ الذي يصيب الحديد فيفسده ، ويعلو جوانب السيوف فيضعف حدتها ن وقد تتآكل . وفي الموضع المصاحب للفظ البصر هنا يترجح اشتقاق اللفظة من الطبع (بفتح الباء) .؛ لذلك اختصت بالذم وسوء المصير ؛

(١) ينظر : تفسير أبي السعود :٥ / ٧٠ ؛ وتفسير الشعراوي : ١٢ /٧٦٦٠، ٧٦٦١ .

لأن القلوب المطبوع عليها صارت فاسدة ، كما يفسد الطبع الحديد . [١] يقول الشيخ الشعراوي – رحمه الله – : " طبع : أي ختم عليها ، وإذا تأملت الختم وجدت المقصود منه أن الشيء الداخل يظل داخلا لا يخرج ، وأن الخارج يظل خارجا لا يدخل . وفرق بين ختم البشر وختم ربنا – سبحانه – ، فقصارى ما تفعله أن نختم الأشياء المهمة كالرسائل السرية مثلا ، أو نريد إغلاق مكان ما نختم عليه بالشمع الأحمر ؛ لنتأكد من غلقه ، ومع ذلك نجد من يحتال على هذا الختم ويستطيع فضه وربما أعاده كما كان . أما إذا ختم الحق – سبحانه وتعالى – على شيء فلا يستطيع أحد التحايل عليه سبحانه . فالمراد _ إذن _ بقوله تعالى : (طبع الله على قلوبهم ..) أن ما فيها من الكفر لا يخرج منها ، وما هو خارجها من الإيمان لا يدخل فيها ؛ ذلك لأن القلب هو الوعاء الذي تصب فيه الحواس التي هي وسائل الإدراكات المعلومية ، وأهمها السمع والبصر " .[٢]

سمات منهج القرآن الكريم في مصاحبة (البصر) اللفظية للطبع :

بالتأمل في الموضع الذي ورد فيه لفظ (الطبع) المصاحب للبصر يمكن تقرير ما يأتي : في الموضع جاء التعبير بالوصف في صورة الفعل الماضي ، المبني للمعلوم ، المسند إلى الاسم الظاهر(الله)– عز وجل– ولم يأت معها اسم ولا مصدر قط . وقد وقع الطبع على البصر مقرونا بالسمع والقلوب ،كما قرن الطبع بصفات ذم أخرى لاحقة له ؛حيث وصفوا ب(الغافلون) بعد الطبع . كما جاء هذا الموضع مقصورا على مقام الذم وسوء العقاب والمصير .

---

(١) ينظر : دراسة جديد في إعجاز القرآن مناهج تطبيقية في توظيف اللغة – أ . د / عبد العظيم المطعني – ص ١٨١ : ١٨٥ .الناشر مكتبة وهبة – أميرة للطباعة – الطبعة الولى – ١٩٩٦ م .

(٢) تفسير الشعراوي : ٨٢٣٩/١٣ ؛ وينظر : تفسير أبي السعود : ٥ / ١٤٣ ، ١٤٤ .

ويمكن رصد سمات منهج القرآن الكريم في مصاحبة (البصر) اللفظية للفعل (طبع) في الآتي :

١- أرجحية اشتقاق الوصف من (الطبع) بفتح الباء ، أي : الدنس .

٢- مجيء الوصف الوارد في أسلوب خبري ، بصورته الفعلية الماضوية .

٣- مجيء الوصف في موضع الذم وسوء المصير.

٤- إسناد الوصف الوارد في الموضع إلى الاسم الظاهر (الله) .

٥- اقتران الوصف الوارد (الطبع) بصفات ذم أخرى لاحقة له ؛ حيث وصفوا ب(الغافلون) بعد الطبع .

ثالث عشر : بلاغة وصف (البصر) بالحدَّة :

قال تعالى : (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) / ق . جاءت هذه الآية الكريمة معطوفة على ما قبلها من آيات هي إخبار عما يلقاه الإنسان المتقدم ذكره من الأهوال والشدائد في المواقف الأخروية وما بين يديها ، أولها قوله:(جاءت سكرة الموت بالحق) [ق: ١٩] ، ثم قال : (ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) [ق : ٢٠-٢١] ، ثم قال : (وقال قرينه هذا ما لدى عتيد)[ق:٢٣] ، فهذه إخبارات عن شدائد بعضها تلو بعض ، فطابق ذلك ورود بعضها معطوفا على بعض .[١] ولفظة(حديد) مشتقة من الحدة بمعنى القوة والنفاذ ، يقول الراغب : " وحددت السكين : رققت حده ، وأحددته : جعلت له حدا ، ثم يقال لكل ما دق في نفسه من حيث الخلقة أو من حيث المعنى كالبصر والبصيرة حديد ، فيقال : هو حديد النظر، وحديد الفهم ، قال عز وجل : (فبصرك اليوم حديد) " .[٢]

---

(١) ينظر : ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي ٢ / ٤٤٧- وضع حواشيه / عبد الغني محمد علي الفاسي – ط دار الكتب العلمية / بيروت .

(٢) المفردات : ص ٢٢٢ .

وَحِدَّةُ الْبَصَرِ: قُوَّةُ نَفَاذِهِ فِي الْمَرْئِيِّ ، وَحِدَّةُ كُلِّ شَيْءٍ قُوَّةُ مَفْعُولِهِ ، وَمِنْهُ حِدَّةُ الذِّهْنِ ، وَالْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ تَشْبِيهَ حُصُولِ الْيَقِينِ بِرُؤْيَةِ الْمَرْئِيِّ بِبَصَرٍ قَوِيٍّ ، وَتَقْيِيدُهُ بِقَوْلِهِ: الْيَوْمَ تَعْرِيضٌ بِالتَّوْبِيخِ ، أَيْ : لَيْسَ حَالُكَ الْيَوْمَ كَحَالِكَ قَبْلَ الْيَوْمِ إِذْ كُنْتَ فِي الدُّنْيَا مُنْكِرًا لِلْبَعْثِ .

وَالْمَعْنَى : فَقَدْ شَاهَدْتَ الْبَعْثَ وَالْحَشْرَ وَالْجَزَاءَ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ كُله ، قَالُوا : (أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ)الصافات: ٥٣ .وَقَالُوا : (وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)/الصافات : ٥٩ . فَقَدْ رَأَى الْعَذَاب ببصره . وقيل : هو بصر القلب . كما يقال : هو بصير بالفقه ، فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار ،كما تبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام . وقيل المراد به بصر العين وهو الظاهر أي بصر عينك اليوم حديد ، أي : قوي نافد يرى ما كان محجوبا عنك. قال مجاهد : (فبصرك اليوم حديد) يعني: نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك. وقاله الضحاك، وقيل: يعاين ما يصير إليه من ثواب وعقاب. وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: يعني الكافر يحشر وبصره حديد ثم يرزق ويعمى وقيل : الخطاب للنبي محمد- صلى الله عليه وسلم- والمعنى: كنت في غفلة من امر الديانة فكشفنا عنك غطاء الغفلة بالوحي وتعليم القرآن (فبصرك اليوم حديد) ترى ما لا يرون وتعلم ما لا يعلمون .[١]

وقوله : (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) مَقُولُ قَوْلٍ مَحْذُوف دلّ عَلَيْهِ تَعَيُّنُهُ مِنَ الْخِطَابِ ، أَيْ : يُقَالُ هَذَا الْكَلَامُ لِكُلِّ

(١) ينظر : الاشباه والنظائر :ص٢٢٥ . في القرآن الكريم – مقاتل بن سليمان البلنجي – ت د/ عبد الله شحاتة – الهيئة المصرية العائلة للكتاب ١٩٥٧ م ؛ والجامع لأحكام القرآن – القرطبي – : ١٧ / ١٢ – دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى ١٩٨٨م ؛ وتفسير القرآن العظيم – ابن كثير – : ٤ / ٢٢٦ – دار الجيل – بيروت – ط أولى ١٩٨٨م ؛ وتفسير البيضاوي : ٥ / ٤١ ، ٤٢ ؛ وتفسير أبي السعود : ٨ / ١٣٠ ؛ والبحر المحيط : ٨ / ١٢٤ ، ١٢٥ ؛ وتفسير الخازن : ٤ / ١٦٨ ؛ والتحرير والتنوير : ٢٦ / ٣٠٩.

نَفْسٍ مِنْ نُفُوسِ الْمُشْرِكِينَ فَهُوَ خِطَابُ التَّهَكُّمِ التَّوْبِيخِيِّ لِلنَّفْسِ الْكَافِرَةِ ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَمْ يَكُنْ فِي غَفْلَةٍ عَنِ الْحَشْرِ وَالْجَزَاءِ . وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ وَمَقُولِهِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ كُلُّ نَفْسٍ ، أَوْ مَوْقِعِ الصِّفَةِ ، وَعَلَامَاتُ الْخِطَابِ فِي كَلِمَاتِ (كُنْتَ وعَنْكَ، وغِطاءَكَ ، وفَبَصَرُكَ) مَفْتُوحَةٌ لِتَأْوِيلِ النَّفْسِ بِالشَّخْصِ أَوْ بِالْإِنْسَانِ ثُمَّ غَلَبَ فِيهِ التَّذْكِيرُ عَلَى التَّأْنِيثِ . وَهَذَا الْكَلَامُ صَادِرٌ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ – تَعَالَى – وَهُوَ شُرُوعٌ فِي ذِكْرِ الْحِسَابِ .

وَالْغَفْلَةُ : الذُّهُولُ عَمَّا شَأْنُهُ أَنْ يُعْلَمَ ، وَأُطْلِقَتْ هُنَا عَلَى الْإِنْكَارِ وَالْجَحَدِ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ ، وَرَشَّحَ ذَلِكَ قَوْلُهُ :(فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ) بِمَعْنَى: بَيَّنَّا لَكَ الدَّلِيلَ بِالْحِسِّ فَهُوَ أَيْضًا تَهَكُّمٌ . وَأُوثِرَ قَوْلُهُ :(فِي غَفْلَةٍ) عَلَى أَنْ يُقَالَ : " غَافِلًا " ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَمَكُّنِ الْغَفْلَةِ مِنْهُ ؛ وَلِذَلِكَ اسْتَتْبَعَ تَمْثِيلَهَا بِالْغِطَاءِ .

وَكَشْفُ الْغِطَاءِ تَمْثِيلٌ لِحُصُولِ الْيَقِينِ بِالشَّيْءِ بَعْدَ إِنْكَارِ وُقُوعِهِ ، أَيْ : كَشَفْنَا عَنْكَ الْغِطَاءَ الَّذِي كَانَ يَحْجُبُ عَنْكَ وُقُوعَ هَذَا الْيَوْمِ بِمَا فِيهِ ، وَأُسْنِدَ الْكَشْفُ إِلَى اللَّهِ – تَعَالَى – ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي أَظْهَرَ لَهَا أَسْبَابَ حُصُولِ الْيَقِينِ بِشَوَاهِدِ عَيْنِ الْيَقِينِ . وَأُضِيفَ (غِطَاءَ) إِلَى ضَمِيرِ الْإِنْسَانِ الْمُخَاطِبِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِهِ وَأَنَّهُ مِمَّا يُعْرَفُ بِهِ . (١)

سمات منهج القرآن الكريم في مصاحبة (البصر) اللفظية للطبع :

بالتأمل في الموضع الذي ورد فيه لفظ (حديد) المصاحب للبصر يمكن رصد سمات منهج القرآن الكريم في مصاحبة (البصر) اللفظية للفعل (طبع) في الآتي :

١- جاء التعبير بالوصف بصورة الصفة المشبهة الدالة على المبالغة .

٢- اشتقاق الوصف من (الحدة) بكسر الحاء ، الدال على القوة والنفاذ .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٦ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

٣- مجيء الوصف الوارد في أسلوب خبري ، في صورة الجملة الاسمية المكونة من المبتدأ والخبر .

٤- مجيء الوصف في سياق الحديث عن بعض مواقف اليوم الآخر .

رابع عشر : بلاغة مصاحبة لفظ " خسأ " و " حسر " للفظ (البصر) :

قال تعالى : (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) / الملك . وردت لفظة (البصر) مصاحبة للوصف المشتق من لفظتي (خسأ – حسر) في موضع واحد من سورة (الملك) ، فجاء الوصف الأول حالا على زنة (فاعل) (خاسئا) من الفعل المسند إلى البصر الواقع فاعلا له . بينما جاء الوصف الثاني صفة مشبهة على زنة (فعيل) (حسير) ، وقد وقع خبرا في جملة معطوفة على الجملة التي اشتملت على الوصف الأول .

وقد اتحد المقام الذي ورد فيه الوصفان ، وهو بيان عدم التفاوت في خلق الله تعالى .

ذلك أن الله – تعالى – لما أخبر أنه لا تفاوت في خلقه ، أمر بترديد البصر في الخلق المناسب ، فقال (فارجع) ففي الفاء معنى التسبب . أَيِ : انْتِفَاءُ رُؤْيَةِ التَّفَاوُتِ ، جُعِلَ سَبَبًا لِلْأَمْرِ بِالنَّظَرِ ؛ لِيَكُونَ نَفْيُ التَّفَاوُتِ مَعْلُومًا عَنْ يَقِينٍ دُونَ تَقْلِيدٍ لِلْمُخْبِرِ . والمعنى أن العيان يطابق الخبر ، وأنك إن رجعت البصر وكررت النظر لتطلب فطور شقوق أو خللا أو عيبا رجع إليك مبعدا عما طلبته ؛ لانتفاء ذلك عنها ، وهو كال من كثرة النظر .[١]

(١) ينظر: الكشاف : ٤ / ٥٨١؛ والبحر المحيط : ٢٩٣/٨؛ وأبو السعود : ٩ / ٤؛والتحرير والتنوير : ٢٩ / ١٨.

وقوله عز وجل : (ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) يصح أن يكون بمعنى حاسر ، وأن يكون بمعنى محسور ، قال تعالى : (فتقعد ملوما محسورا) [الإسراء /٢٩] . والحسرة : الغم على ما فاته والندم عليه ، كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه ، أو انحسر قواه من فرط غم ، أو أدركه إعياء من تدارك ما فرط منه. ومنه : خسأ البصر، أي : انقبض عن مهانة .(١) وَرَجْعُ الْبَصَرِ: تَكْرِيرُهُ وَالرَّجْعُ : الْعَوْدُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يُجَاءُ مِنْهُ ، وَالرَّجْعُ يَقْتَضِي سَبْقَ حُلُولٍ بِالْمَوْضِعِ ، فَالْمَعْنَى : أَعِدِ النَّظَرَ ، وَهُوَ النَّظَرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ، أَيْ : أَعِدْ رُؤْيَةَ السَّمَاوَاتِ وَأَنَّهَا لَا تَفَاوُتَ فِيهَا إِعَادَةَ تَحْقِيقٍ وَتَبَصُّرٍ، كَمَا يُقَالُ : أَعِدْ نَظَرًا .

وَالْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ : (فَارْجِعِ الْبَصَرَ إِلْخَ) . خِطَابٌ لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ ، وَصِيغَةُ الْأَمْرِ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْإِرْشَادِ لِلْمُشْرِكِينَ مَعَ دَلَالَتِهِ عَلَى الْوُجُوبِ لِلْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ النَّظَرَ فِي أَدِلَّةِ الصِّفَاتِ وَاجِبٌ لِمَنْ عُرِضَ لَهُ دَاعٍ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ . وَالْبَصَرُ مُسْتَعْمَلٌ فِي حَقِيقَتِهِ . وَالْمُرَادُ بِهِ الْبَصَرُ الْمَصْحُوبُ بِالتَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ بِدَلَالَةِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مُوجِدِهَا .(٢)

وفي قوله: (ينقلب إليك البصر خاسئا) وضع للظاهر موضع المضمر ، وفيه من الفائدة التنبيه على أن الذي خاسئا حسيرا غير مدرك الفطور هو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن ، فإذا لم يدرك شيء؛ دل على أنه لا شيء .(٣)

وَالِاسْتِفْهَامُ فِي هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ تَقْرِيرِيٌّ وَوَقَعَ بِـ(هَلْ) ؛ لِأَنَّ هَلْ تُفِيدُ تَأْكِيدَ الِاسْتِفْهَامَ إِذْ هِيَ بِمَعْنَى (قَدْ) فِي الِاسْتِفْهَامِ ، وَفِي ذَلِكَ تَأْكِيدٌ وَحَثٌّ عَلَى

---

(١) ينظر : المفردات للراغب : ٢٣٥ ، ٢٨٢ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٩ / ١٨ .

(٣) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) – محمد جمال الدين القاسمي – : ١٦ / ٥٨٨٠ – تح/ محمد فؤاد عبد الباقي – الطبعة الأولى ١٩٥٧ م .

التَّبصُّرِ وَالتَّأَمُّلِ ، أَي : لَا تقتنع بِنَظْرَةٍ وَنَظْرَتَيْنِ ، فَتَقُولُ : لَمْ أَجِدْ فُطُورًا ، بَلْ كَرِّرِ النَّظَرَ وَعَاوِدْهُ بَاحِثًا عَنْ مُصَادَفَةِ فُطُورٍ لَعَلَّكَ تَجِدُهُ .

وَعَطْفُ (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصرَ كَرَّتَيْنِ) دَالٌّ عَلَى التَّرَاخِي الرُّتَبِيِّ ، كَمَا هُوَ شَأْنُ ثُمَّ فِي عَطْفِ الْجُمَلِ ، فَإِنَّ مَضْمُونَ الْجُمْلَةِ الْمَعْطُوفَةِ بِ(ثُمَّ) هُنَا أَهَمُّ وَأَدْخَلُ فِي الْغَرَضِ مِنْ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا ؛ لِأَنَّ إِعَادَةَ النَّظَرِ تَزِيدُ الْعِلْمَ بِانْتِفَاءِ التَّفَاوُتِ فِي الْخَلْقِ رُسُوخًا وَيَقِينًا .

وَ(كَرَّتَيْنِ) تَثْنِيَةُ كَرَّةٍ ، وَهِيَ : الْمَرَّةُ ، وَعَبَّرَ عَنْهَا هُنَا بِالْكَرَّةِ مُشْتَقَّةً مِنَ الْكَرِّ ، وَهُوَ : الْعَوْدُ ؛ لِأَنَّهَا عَوْدٌ إِلَى شَيْءٍ بَعْدَ الْانْفِصَالِ عَنْهُ ، كَكَرَّةِ الْمُقَاتِلِ يَحْمِلُ عَلَى الْعَدُوِ بَعْدَ أَنْ يَفِرَّ فِرَارًا مَصْنُوعًا . وَإِيثَارُ لَفْظِ (كَرَّتَيْنِ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ دُونَ مُرَادِفِهِ نَحْوِ : " مَرَّتَيْنِ ، وَتَارَتَيْنِ " ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ كَرَّةَ لَمْ يَغْلِبْ إِطْلَاقَهَا عَلَى عَدَدِ الْاثْنَيْنِ ، فَكَانَ إِيثَارُهَا فِي مَقَامٍ لَا يُرَادُ فِيهِ اثْنَيْنِ أَظْهَرَ فِي أَنَّهَا مُسْتَعْمَلَةٌ فِي مُطْلَقِ التَّكْرِيرِ دُونَ عَدَدِ اثْنَيْنِ أَوْ زَوْجٍ . وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِ الْإِعْجَازِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَقَامَ إِرَادَةِ عَدَدِ الزَّوْجِ كَانَ مُقْتَضِيًا تَثْنِيَةَ مَرَّةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ) [الْبَقَرَة : ٢٢٩] ؛ لِأَنَّهُ أَظْهَرُ فِي إِرَادَةِ الْعَدَدِ إِذْ لَفْظُ مَرَّةٍ أَكْثَرُ تَدَاوُلًا . وَتَثْنِيَةُ (كَرَّتَيْنِ) لَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا عَدَدَ الْاثْنَيْنِ الَّذِي هُوَ ضِعْفُ الْوَاحِدِ ؛ إِذْ لَا يَتَعَلَّقُ غَرَضٌ بِخُصُوصِ هَذَا الْعَدَدِ ، وَإِنَّمَا التَّثْنِيَةُ مُسْتَعْمَلَةٌ كِنَايَةً عَنْ مُطْلَقِ التَّكْرِيرِ ؛ فَإِنَّ مِن اسْتِعْمَالَاتِ صِيغَةِ التَّثْنِيَةِ فِي الْكَلَامِ أَنْ يُرَادَ بِهَا التَّكْرِيرُ . وَذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِمْ : « لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ » يُرِيدُونَ تَلْبِيَاتٍ كَثِيرَةً وَإِسْعَادًا كَثِيرًا . وَأَصْلُ اسْتِعْمَالِ التَّثْنِيَةِ فِي مَعْنَى التَّكْرِيرِ أَنَّهُمُ اخْتَصَرُوا بِالتَّثْنِيَةِ تَعْدَادَ ذِكْرِ الْاسْمِ تَعْدَادًا مُشِيرًا إِلَى التَّكْثِيرِ . وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُهُمْ: وَقَعَ كَذَا غَيْرَ مَرَّةٍ، أَيْ مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ

فَمَعْنَى (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصرَ كَرَّتَيْنِ) : عَاوِدِ التَّأَمُّلَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَغَيْرِهَا غَيْرَ مَرَّةٍ .

وَالانْقِلَابُ : الرُّجُوعُ يُقَالُ : انْقَلَبَ إِلَى أَهْلِهِ ، أَيْ : رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ . قَالَ تَعَالَى : (وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ) . [المطففين : ٣١] . وَإِيثَارُ فِعْلُ : (يَنْقَلِبْ) هُنَا دُونَ : (يَرْجِعُ) ؛ لِئَلَّا يَلْتَبِسَ بِفِعْلِ ارْجِعِ الْمَذْكُورِ قَبْلَهُ . وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِ الْإِعْجَازِ نَظِيرُ إِيثَارِ كَلِمَةَ (كَرَّتَيْنِ) كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا . وَالْخَاسِئُ : الْخَائِبُ ، أَيِ : الَّذِي لَمْ يَجِدْ مَا يَطْلُبُهُ .

وَالْحَسِيرُ : الْكَلِيلُ . وَهُوَ كلل ناشىء عَنْ قُوَّةِ التَّأَمُّلِ وَالتَّحْدِيقِ مَعَ التَّكْرِيرِ ، أَيْ : يَرْجِعُ الْبَصَرُ غَيْرَ وَاجِدٍ مَا أُغْرِيَ بِالْحِرْصِ عَلَى رُؤْيَتِهِ بَعْدَ أَنْ أَدَامَ التَّأَمُّلَ وَالْفَحْصَ حَتَّى عَيِيَ وَكَلَّ ، أَيْ : لَا تَجِدْ بَعْدَ اللَّأْيِ فُطُورًا فِي خلق الله .[1] وبهذا تناغم الوصفان مع السياق ؛ بما تحقق به حق المصاحبة للفظ البصر في الآية الكريمة .

سمات منهج القرآن الكريم في مصاحبة (البصر) للفظتي " خاسئا " و " حسير " :

١- مجيء الوصفين الواردين في أسلوب خبري : أحدهما جاء في جملة فعلية وقع الوصف فيها حالا ، والثاني جاء في جملة اسمية جاء الوصف فيها خبرا .

٢- مجيء الوصفين في موضع واحد ومقام متحد هو بيان عدم التفاوت في خلق الله تعالى .

٣- مجيء لفظ (البصر) حال اقترانه بالوصف (خاسئا) كاسم ظاهر في موضع المضمر ، وفيه من الفائدة التنبيه على أن الذي خاسئا حسيرا غير مدرك الفطور هو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن ، فإذا لم يدرك شيء ؛ دل على أنه لا شيء .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٩ / ١٨ ، ١٩ .

خامس عشر : بلاغة مصاحبة لفظ " زلق " ومشتقاته للفظ (البصر) :

قال تعالى : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) / القلم . وردت لفظة (البصر) مصاحبة للفعل المضارع المشتق من لفظة (زلق) ، المرفوع بثبوت النون ، والمقترن بلام الابتداء ، وذلك في مقام عَرَّفَ اللَّهُ رَسُولَهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَعْضَ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ نُفُوسُ الْمُشْرِكِينَ نَحْوَ النَّبِي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الْحِقْدِ وَالْغَيْظِ وإضمار الشَّرّ عِنْد مَا يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ .[١] فإنه لما أمر الله – تعالى – نبيه – صلى الله عليه وسلم – بالصبر لما أراده تعالى ، ونهاه عن ما نهاه ، أخبره بشدة عداوتهم ؛ ليتلقى ذلك بالصبر لما أراده تعالى ونهاه عن ما نهاه ، أخبره فقال :(وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك) أي : ليزلقون قومك بنظرهم الحاد الدال على العداوة المفرطة . أو ليهلكونك ، من قولهم : " نظر إلي نظرا يكاد يصرعني ويكاد يأكلني " . أي : لو أمكنه بنظره الصرع والأكل لفعله . وقال الكلبي : (ليزلقونك) ليصرفونك ، وقيل : معنى (ليزلقونك) بأبصارهم ليأخذونك بالعين ، وذكر أن اللفع بالعين كان في بني أسد ، قال ابن الكلبي : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ثم يرفع جانب خبائه فيقول : لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلا ثم تسقط طائفة أو عدة منها ، قال الكفار لهذا الرجل أن يصيب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فعصم الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه هذه الآية ، قال قتادة : نزلت لدفع العين حين أرادوا أن يعينوه – عليه الصلاة والسلام – .[٢]

وَالزَّلَقُ – بِفَتْحَتَيْنِ – : زَلَلُ الرِّجْلِ مِنْ مُلَاسَةِ الْأَرْضِ مِنْ طِينٍ عَلَيْهَا أَوْ دُهْنٍ .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٩ / ١٠٧ .

(٢) ينظر : البحر المحيط : ٨ / ٣١١ ؛ وتفسير الخازن : ٤ / ٣٠٣ ؛ وأبو السعود : ٩ / ٢٠ ؛ ومحاسن التأويل للقاسمي : ١٦ / ٥٩٠٩ .

وَلَمَّا كَانَ الزَّلَقُ يُفْضِي إِلَى السُّقُوطِ غَالِبًا أُطْلِقَ الزَّلَقُ وَمَا يُشْتَقُّ مِنْهُ عَلَى السُّقُوطِ وَالْانْدِحَاضِ عَلَى وَجْهِ الْكِنَايَةِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ هُنَا : (لَيُزْلِقُونَكَ) ، أَيْ : يُسْقِطُونَكَ وَيَصْرَعُونَكَ .

وَعَن مُجَاهِد : أَي : يَنْفِذُونَكَ بِنَظَرِهِمْ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : يُقَالُ زَلَقَ السَّهْمُ وَزَهَقَ ، إِذَا نَفِذَ ، وَلَمْ أَرَه لِغَيْرِهِ ، قَالَ الرَّاغِبُ [1] قَالَ يُونُسُ : لَمْ يُسْمَعِ الزَّلَقُ وَالْإِزْلَاقُ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ . اهـ.

وَعَلَى جَمِيعِ الْوُجُوهِ فَقَدْ جَعَلَ الْإِزْلَاقَ بِأَبْصَارِهِمْ عَلَى وَجْهِ الْاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ، شُبِّهَتِ الْأَبْصَارُ بِالسِّهَامِ وَرُمِزَ إِلَى الْمُشَبَّهِ بِهِ بِمَا هُوَ مِنْ رَوَادِفِهِ وَهُوَ فِعْلُ (يَزْلِقُونَكَ) .

وَقَرَأَ نَافِعُ وَأَبُو جَعْفَرٍ (يَزْلِقُونَكَ) بِفَتْحِ الْمُثَنَّاةِ مُضَارِعُ زَلَقَ بِفَتْحِ اللَّامِ يَزْلَقُ مُتَعَدِّيًا ، إِذَا نَحَّاهُ عَنْ مَكَانِهِ .

وَجَاءَ يَكادُ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِمْرَارِ ذَلِكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَجَاءَ فِعْلُ سَمِعُوا مَاضِيًا ؛ لِوُقُوعِهِ مَعَ لَمَّا وَلِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ مِنْهُمْ ذَلِكَ وَلَيْسَ مُجَرَّدَ فَرْضٍ .

وَاللَّامُ فِي لَيُزْلِقُونَكَ لَامُ الْابْتِدَاءِ الَّتِي تَدْخُلُ كَثِيرًا فِي خَبَرِ إِنْ الْمَكْسُورَةِ وَهِيَ أَيْضًا تُفَرِّقُ بَيْنَ إِنْ الْمُخَفَّفَةِ وَبَيْنَ (إِنْ) النَّافِيَةِ .

وَضَمِيرُ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ عَائِدٌ إِلَى النَّبِي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حِكَايَةً لِكَلَامِهِمْ بَيْنَهُمْ ، فَمَعَادُ الضَّمِيرِ كَائِنٌ فِي كَلَامِ بَعْضِهِمْ ، أَوْ لَيْسَ لِلضَّمِيرِ مَعَادٌ فِي كَلَامِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ مُنْصَرِفٌ إِلَى مَنْ يَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ فِي غَالِبِ مَجَالِسِهِمْ . وَالْمَعْنَى : يَقُولُونَ ذَلِكَ اعْتِلَالًا لِأَنْفُسِهِمْ إِذْ لَمْ يَجِدُوا فِي الذِّكْرِ الَّذِي يَسْمَعُونَهُ مَدْخَلًا لِلطَّعْنِ فِيهِ فَانْصَرَفُوا إِلَى الطَّعْنِ فِي صَاحِبِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِأَنَّهُ

---

(١) ينظر : المفردات : ص ٣٨٣ .

مَجْنُونٌ ؛ لِيَنْتَقِلُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْكَلَامَ الْجَارِيَ عَلَى لِسَانِهِ لَا يُوثَقُ بِهِ لِيَصْرِفُوا دَهْمَاءَهُمْ عَنْ سَمَاعِهِ . (١)

سمات منهج القرآن الكريم في مصاحبة (البصر) للفظة " يزلقونك " :

١- مجيء الوصف الوارد في أسلوب خبري ، مسبوق بالفعل (يكاد) المضارع ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِمْرَارِ الوصف المصاحب للبصر والمدلول عليه بالفعل (يزلقونك) فِي الْمُسْتَقْبَلِ .

٢- مجيء الوصف في موضع واحد ومقام متحد هو بيان شدة عداوة الكفار لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ؛ ليتلقى ذلك بالصبر لما أراده تعالى ونهاه عن ما نهاه .

٣- مجيء الوصف في صورة مجازية عَلَى وَجْهِ الْاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ ، حيث شُبِّهَتِ الْأَبْصَارُ بِالسِّهَامِ وَرُمِزَ إِلَى الْمُشَبَّهِ بِهِ بِمَا هُوَ مِنْ رَوَادِفِهِ وَهُوَ فِعْلُ (يَزْلِقُونَكَ) .

سادس عشر : بلاغة مصاحبة لفظ " بَرِقَ " للفظ (البصر) :

قال تعالى : (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) / القيامة .

وردت لفظة (البصر) مصاحبة للفظة (برق) وجاء الوصف مسندا إلى البصر ، في سياق الرد على سؤال الكافرين : متى يوم القيامة ؟ (يسأل أيان يوم القيامة) ، و(برق) يقال في العين ؛ إذا اضطربت وجالت من خوف . (٢)

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٩ / ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٢) المفردات للراغب : ص ١١٩ .

ومعنى (فإذا برق البصر) أي : تحير فزعا ، من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره ، أو من البريق . بمعنى : لمع من شدة شخوصة .(١)

وقيل : شخص البصر عند الموت فلا يطرف ؛ مما يرى من العجائب التي كان يكذب بها في الدنيا . وقيل : تبرق أبصار الكفار عند رؤية جهنم . وقيل : برق ، أي : شق عينه وفتحها ، من البريق ، وهو التلألؤ .(٢) وبَرِقَ قَرَأَهُ الْجُمْهُورُ بِكَسْرِ الرَّاءِ ، وَمَعْنَاهُ : دُهِشَ وَبُهِتَ ، يُقَالُ : بَرِقَ يَبْرَقُ فَهُوَ بَرِقٌ مِنْ بَابِ فَرِحَ ، فَهُوَ مِنْ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ .

وَإِنَّمَا أُسْنِدَ فِي الْآيَةِ إِلَى الْبَصَرِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ تَنْزِيلًا لَهُ مَنْزِلَةَ مَكَانِ الْبَرْقِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا بُهِتَ شَخَصَ بَصَرُهُ .

وَقَرَأَهُ نَافِعٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ بِفَتْحِ الرَّاءِ مِنَ الْبَرِيقِ بِمَعْنَى اللَّمَعَانِ ، أَيْ : لَمَعَ الْبَصَرُ مِنْ شِدَّةِ شُخُوصِهِ ، وَمُضَارِعُهُ يَبْرُقُ بِضَمِّ الرَّاءِ. وَإِسْنَادُهُ إِلَى الْبَصَرِ حَقِيقَةٌ .

وَمَآلُ مَعْنَى الْقِرَاءَتَيْنِ وَاحِدٌ وَهُوَ الْكِنَايَةُ عَنِ الْفَزَعِ وَالرُّعْبِ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) / الْأَنْبِيَاء : ٩٧ . فَلَا وَجْهَ لِتَرْجِيحِ الطَّبَرِيِّ قِرَاءَةَ الْجُمْهُورِ عَلَى قِرَاءَةِ نَافِعٍ وَأَبِي جَعْفَرٍ، لَا مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى وَلَا مِنْ مُقْتَضَى التَّفْسِيرِ.

وَالتَّعْرِيفُ فِي الْبَصَرُ لِلْجِنْسِ الْمُرَادِ بِهِ الِاسْتِغْرَاقُ ، أَيْ : أَبْصَارُ النَّاسِ كُلِّهِمْ مِنَ الشِّدَّةِ الْحَاصِلَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي الرُّعْبِ الْحَاصِلِ لَهُمْ عَلَى تَفَاوُتِهِمْ فِيمَا يَعْرِضُونَ عَلَيْهِ مِنْ طَرَائِقِ مَنَازِلِهِمْ .(٣)

---

(١) ينظر : أبو السعود ٩/ ٦٥ ؛ والبحر المحيط : ٨/ ٣٧٦ ؛ وروح المعاني : ٢٩ م ١٣٩ ؛ والسراج المنير للشربيني : ٤ / ٤٢٢ .

(٢) ينظر : تفسير الخازن ٤/ ٣٣٧ ومحاسن التأويل للقاسمي : ١٦ / ٥٩٩٠ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٩ / ٣٤٤ .

سمات منهج القرآن الكريم في مصاحبة (البصر) للفظة " برق " :

١- مجيء الوصف الوارد في أسلوب خبري ، وقع الوصف فعلا ماضيا مسندا للبصر (الفاعل) .

٢- المعنى العام للوصف في السياق الوارد فيه هو الدلالة على التحير والدهشة .

٣- مجيء الوصف في السياق يحتمل أن يكون من قبيل الحقيقة أو من المجاز .

الخاتمة

من خلال استعراضنا لجوانب من بيان القران الكريم مما يتعلق بفصاحته وبلاغته ونظمه وأسلوبه ، وذكر الأمثلة على ذلك من الآيات الكريمة يتضح لكل منصف أن أفانين القول التي وردت في القرآن الكريم من فاتحته إلى خاتمته لا تخلو آية من آياته عن نكتة لطيفة ، أو حكمة طريفة ، أو بيان مفحم ، أو عبارة تأخذ بالألباب وتحير العقول بجمالها وبلاغتها .

ولهذا كان بيانه كالسحر الحلال يستولي على عقل السامع ويسلبه إرادته ويسخره لأغراضه ؛ ولهذا كان القران معجزا ، أعجز الثقلين أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، فكان المعجزة الخالدة المستمرة إلى يوم القيامة والحجة القاهرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

إن الأسلوب المتميز من بين الأساليب الذي اختص به القرآن الكريم ، والنظم المحكم الدقيق الذي لا تكاد العقول تدرك بعض خصائصه إلا ويبهرها الجمال وتسيطر عليها الدهشة ، مع استمرار الفصاحة والبلاغة من أول آياته إلى آخرها لدليل واضح على أن هذا الكتاب الكريم ليس من صنع البشر ، وإنما هو تنزيل من خالق القوى القدر (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا. قل انزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما) /الفرقان :٥-٦ . (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) (يونس : ٣٧) .[١]

وقد لوحظ أثناء التحليل أن الآيات التي ذكر فيها المصدر أو القوة المدركة (البصر) ذكر فيها معنى لإدراك والتفهم والتدبر . أي : ذكر فيها معنى العقل فالبصر بصيغة المصدرية فيها يشير إلى قيمة عقلية ، أو قوة إدراكية عاقلة ؛ لذلك _ وهو مهم _ أن القران الكريم حين ذكر البصر ، ولم يذكر معه السمع ؛

(١) ينظر : مباحث في إعجاز القرآن – د/ مصطفى مسلم ص ١٦٣ (مرجع سابق)

فانه يذكر أخذا على المعتاد من المطابقة بين الألفاظ ومعانيها المفردة وغير المفردة ؛ إذ لا مجال إذ ذاك لمفاضلة بين الحواس أو ترجيح بينها ؛ وما هو إلا البصر كما يراه الله تعالى في حقيقته ، حاسة من الحواس لا غير . كما بان ذلك في قوله تعالى:(فبصرك اليوم حديد) وقوله (لا تدركه الأبصار) .

وأخيرا يمكن القول : إن القران الكريم مستودع الأسرار الإلهية ؛ فما من حرف من حروف القران الكريم ولا لفظ من ألفاظه إلا لوجوده معنى ، ولتكراره مغزى وله جملة من الدلالات ، وكل كلمة من كلماته في موضعها التي هي فيه معجزة من ناحيتين : الأولى : من ناحية المبنى ، والثانية : من ناحية المعنى الذي اشتمل عليه هذا البناء .

فهرس المراجع والمصادر

- **القرآن الكريم** .
- آيتا غض البصر من سورة النور : دراسة تحليلية بيانية – جهاد محمد النصيرات – بحث منشور في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية – المجلد الخامس – العدد الأول – ٢٠٠٩ م .
- ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن – أ . د / عبد الفتاح لاشين – دار الرائد العربي – بيروت (د / ت) .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم – أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى – دار إحياء التراث العربي – بيروت .
- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز – بديع الزمان النورسي – تحقيق إحسان قاسم الصالحي – دار سوزلر للنشر والتوزيع – الطبعة الثالثة بمصر٢٠٠٢م .
- الأشباه والنظائر في القرآن الكريم – مقاتل بن سليمان البلخي – تح : د / عبد الله شحاتة – الهئية المصرية العامة للكتاب – ١٩٥٧ م .
- الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم – محمد حسين سلامه – دار الآفاق العربية – الطبعة الأولى ٢٠٠٢م .
- الإعجاز في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم – د / صادق الهلالي ، د / حسين اللبيدي – منشورات سلسلة إعجاز – الطبعة الثالثة – ٢٠٠٦ م .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل – عبد الله بن عمر البيضاوي – دار إحياء التراث العربي بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٨ م .
- بدائع التفسير الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية – جمع ومراجعة / يسري السيد محمد ، صالح أحمد الشامي – طبعة دار ابن الجوزي – أولى ١٤٢٧ هـ .

- بدائع الفوائد – أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب بن قيم الجوزية – تحقيق: علي بن محمد العمران – دار عالم الفوائد للنشر .
- تأملات في سورة إبراهيم تفسير بلاغي تطبيقي – د / عادل أحمد صابر الروينى – ط / جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم .
- التبيان في أقسام القرآن– ابن القيم – طبعة مكتبة المتنبي بالقاهرة– (د/ت) .
- التعبير القرآني – د / فاضل صالح السامرائي – دار عمار / عمان – ط رابعة – ٢٠٠٦ م .
- التعريفات – علي بن محمد الجرجاني – دار الشؤون الثقافية ببغداد (د/ت) .
- تفسير البحر المحيط – محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي – دراسة وتحقيق وتعليق / الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، وآخرون – دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٩٩٣ م ، وطبعة مكتبة ومطابع النصر الحديثة بالرياض (د/ ت) .
- التفسير البياني للقرآن الكريم – د / عائشة عبد الرحمن – دار المعارف المصرية – ١٩٦٢ م .
- تفسير الشعراوي – الشيخ محمد متولي الشعراوي – (بدون) .
- تفسير القرآن العظيم – إسماعيل بن كثير – دار الجيل بيروت / الطبعة الأولى ١٩٨٨م
- التقديم والتأخير في القرآن الكريم – حميد أحمد عيسى العامري – دار الشؤون الثقافية العامة بغداد – الطبعة الأولى – ١٩٩٦ م .
- الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي – دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الأولى ١٩٨٨ م .
- حاشية شيخ زادة على البيضاوي – طبعة مكتبة الحقيقة – ١٩٩١ م . وطبعة المطبعة العثمانية ١٩٩٥ م .

- دراسات جديدة في إعجاز القرآن مناهج تطبيقية في توظيف اللغة– أ . د / عبدالعظيم المطعني – مكتبة وهبة – أميرة للطباعة – الطبعة الأولى١٩٩٦م .
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون – أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي – تحقيق : د / أحمد محمد الخراط – دار القلم دمشق .
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير – الخطيب الشربيني –مطبعة علي بك جودت – بولاق مصر سنة ١٢٩٩ هـ .
- صفوة البيان لمعاني القرآن – الشيخ حسنين محمد مخلوف – الكويت الطبعة الثالثة ١٩٨٧.
- الكشاف – الزمخشري – دار الفكر للطباعة (د / ت) .
- لباب التأويل في معاني التنزيل – علي بن محمد البغدادي (المعروف بالخازن) – طبعة حسن حلمي الكتبي ، ومحمد حسن جمالي الحلبي – سنة ١٣١٧هـ.
- مباحث في إعجاز القرآن – د / مصطفى مسلم – دار المسلم للنشر – طبعة ثانية ١٤١٦.
- محاسن التأويل (تفسير القاسمي) – محمد جمال الدين القاسمي – تح / محمد فؤاد عبد الباقي – الطبعة الأولى / ١٩٥٧ م .
- مختصر تفسير ابن كثير – أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي – صنعة أ / محمد علي الصابوني – دار إحياء التراث العربي بيروت – الطبعة الأولى .
- معاني الأبنية في العربية – د / فاضل صالح السامرائي – دار عمار للنشر – الطبعة الثانية – ٢٠٠٧ م .
- معاني القرآن وإعرابه – أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج – تحقيق : د/ عبد الجليل شلبي – دار الكتب العلمية بالقاهرة (د / ت) .
- معجم العين– الخليل بن أحمد الفراهيدي – دار إحياء التراث العربي (د/ت) .

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي – مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٣٦٤ هـ .
- معجم مقاييس اللغة – أحمد بن فارس – تحقيق عبد السلام هارون – دار الفكر – ١٩٧٩
- مفردات ألفاظ القرآن – الراغب الأصفهاني – تحقيق صفوان عدنان داوودي – دار القلم دمشق – الطبعة الرابعة ٢٠٠٩ م .
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل – أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي – دار الكتب العلمية بيروت (د / ت)
- من أسرار النظم في سورة القمر) – فايزة سالم صالح أحمد – ص/١١ ، ١٢– سنة ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م (بحث منشور على موقع جامعة أم القرى) .
- من بلاغة القرآن – أحمد بدوي – دار نهضة مصر – ٢٠٠٥ م .
- النكت والعيون تفسير الماوردي – تصنيف : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري – دار الكتب العلمية – بيروت (بدون تاريخ) .

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــوع	رقم الصفحة
١	مقدمة البحث	٤٥٥٥
٢	توطئة	٤٥٥٩
٣	أولا : بلاغة وصف(البصر) بالخشوع	٤٥٦٢
٤	ثانيا : بلاغة وصف (البصر) ب" الشخوص "	٤٥٧١
٥	ثالثا : بلاغة وصف (البصر) ب" الزيغ "	٤٥٧٦
٦	رابعا : بلاغة وصف (البصر) ب" العمى "	٤٥٨١
٧	خامسا : بلاغة وصف (البصر) ب" الغشاوة "	٤٥٨٥
٨	سادسا : بلاغة وصف (البصر) ب" التقليب "	٤٥٩١
٩	سابعا : بلاغة مصاحبة لفظ " الغض " ومشتقاته للفظ (البصر)	٤٥٩٤
١٠	ثامنا : بلاغة مصاحبة لفظ " الشهادة " ومشتقاته للفظ (البصر)	٤٥٩٩
١١	تاسعا : بلاغة مصاحبة لفظ " الخطف " ومشتقاته للفظ (البصر)	٤٦٠١
١٢	تاسعا : بلاغة مصاحبة لفظ " الصرف " ومشتقاته للفظ (البصر)	٤٦٠٣
١٣	عاشرا : بلاغة مصاحبة لفظ " الإدراك " ومشتقاته للفظ (البصر)	٤٦٠٤
١٤	حادي عشر : بلاغة مصاحبة لفظ " السكر " ومشتقاته للفظ (البصر)	٤٦٠٧
١٥	ثاني عشر : بلاغة مصاحبة لفظ " الطبع " ومشتقاته للفظ (البصر)	٤٦٠٩

م	الموضـــــــوع	رقم الصفحة
١٦	ثالث عشر : بلاغة مصاحبة لفظ " الحديد " للفظ (البصر)	٤٦١١
١٧	رابع عشر : بلاغة مصاحبة لفظ " خسأ " و " حسر " للفظ (البصر)	٤٦١٤
١٨	خامس عشر : بلاغة مصاحبة لفظ " زلق " ومشتقاته للفظ (البصر)	٤٦١٨
١٩	سادس عشر : بلاغة مصاحبة لفظ " برق " للفظ (البصر)	٤٦٢٠
٢٠	الخاتمة	٤٦٢٣
٢١	فهرس المراجع والمصادر	٤٦٢٥
٢٢	فهرس الموضوعات	٤٦٢٩